ست الحُزن

عنـوان العمـــل:	ست الحزن
نـــوع العمـــل:	رواية
تـــــــــأليف:	نجوى عبد الرحمن
تصميـم الغـلاف:	حكيم صالح
إخـراج داخلـي:	عبدالقادر فايز الهندي
الطبـــــــاعة:	أتيليه تاتش – المحروسة
النـــــــاشر:	الدار للنشر والتوزيع
المـدير العـــام:	محمد صلاح مراد
تليفـــــــون:	01125800467
البريد الإلكتـروني:	eddar_press@yahoo.com
فيـــس بـــــوك:	www.facebook.com/eldarpublish
رقـــم الإيـــداع:	2016\2102
الترقيـــم الـدولي:	I.S.B.N: 978-977-702-105-0

ست الحزن

رواية

نجوى عبد الرحمن

الدار
للنشر والتوزيع
٢٠١٦

إهداء

إلى الذين رحلوا

تاركين إياى أتعرى فى وجه الليل

أنتم الباقون

مفتتح...

الفزع والقلق...

البحر والخوف...

الافتقاد والألم...

الموت والمجهول...

كلها مكونات شخصية واحدة... هى (أنا)...

ذات يحتويها الشك أحيانًا، والأمان أحيانًا أخرى...

كيان يتأرجح بين شاطئين... خوف وأمان...

وجود يترنَّح... وقد يخبو أحيانًا...

لكن بداخله براءة الطفل تبقى... اندهاش الرؤية الأولى للعالم وإحساس قوى بالحياة

البحر

ينسحب داخلى إلى داخلى، وأنزوى داخل نفسى هاربةً من نفسى... أتقوقع ويتصحَّر القلب والمشاعر، فتصبح أعماق البحر معادلاً لأعماقى، وتتحجَّر الدموع فى مقلتى... يتحشرج الصوت.

من الذى قادنى لتلك الحال، وتركنى؟

أنظر لامتداد البحر يلتقى بالسماء على امتداد الأفق... أبتهج، فتخاف البهجة... تخيفنى لحظات الفرح القليل التى تنسحب أمام الكآبة والحزن، وتصيبنى بالقلق.

آخذ نفسًا عميقًا، وأتأمل البحر تتلاحق أمواجه مع تلاحق أنفاسى، يداعب المجهول بداخله المجهول بداخلى.

ماذا يريد البحر؟!

ماذا أريد أنا؟

غاضبة... فرحة... صموتة... غامضة... أحمل كل صفات البحر... أحملها سلاسل تقيِّد قدمى حتى لا أتخلى عن آلامى... يستصرخ داخلى داخلى أحيانًا: ثورى.. تكلَّمى.

أجدنى تائهة عن نفسى، فقد اعتدتُ الكتمان، وتهرب من وجهى المسافات، فأجمع وجهى محمَّلة بالهزيمة وشروط الاستسلام.

أحتفظ للبحر بخوفى وكتمانى، فأجد ظلمةً بداخلى حيث البحر أنا وأنا البحر... كلانا بالآخر مرتبط، ومرتبطة أنا بمخاوفى لا أفارقها ولا أريد الابتعاد عنها... من يهجر مخاوفه يندم.

آه يا وجهى لم تجد إلا الكف... الكف الذى يحنو فيمسح الدمع، ويقسو فيصفع... أبحث فى لهفةٍ عن أيامى الأولى... عمن ألقى برأسى على كتفه، وألقى أحزانى لتتقطع فى كل الجهات... رغبة عارمة تمزقنى وتلقى بى فى تيه اللاوجود حيث الفراغ، وحيث لا أجد من يحمل عنى همومى.

آه لو بكت نفسك على نفسك يا من تضحكين من الخوف فتذكرين خالك. فأنادى: خالى أين أنت لتخرجنى من نفسى وتلقى بى لرحابة الحياة.. الحياة التى كنا نحياها أنا وأنت.

أتذكر ذلك اليوم... يوم التقينا العراف وأنا طفلة لم تتجاوز العشر سنين، وحدثنا عن عمرى الذى لن يكمل الأربعين... خرجنا يومها من المكان... يملأك الخوف والفزع... أمسكت يدك لتطمئن... قلت لي: "سنسير فى اتجاه البحر قبل العودة للبيت". فحدثتك عن أشياء كثيرة لا أذكر منها الآن شيئًا... لكنك قلت:

"أحسُّ بفرحٍ غامر وشعور يشعُّ من كل جسدى يهز كيانى وكأنى جذع شجرة راسخة تعبث بها الرياح".

مررتَ وقتها بيدك فوق جبينك تمسح عرقًا غزيرًا يتصبب فوق وجهك، لتكتشف أن جبينك جاف ولا عرق، وأن الخوف يسدل أستاره الثقيلة، قادمًا من بعيد.

تأملتك وأنت واقف يومها تتأمل النوارس تلهو بين السماء والماء.. تبحث عن مجهول فى البحر وربما فى الرمال... علمتنى حب الطيور، وعشق النورس... كنت تشبِّهنى به دون أن أعرف لماذا. وقفت مكانك لحظتها واضعًا وجهك بين كفيك تعانى دموعًا تريد الهرب ولا تبكى.

مشيتَ، فركضتُ أنا خلفك.. كنت تتحدث بصوتٍ خافت لا أدرى أكنت تحدثنى أم تحدث نفسك! كل ما سمعته لفظة (الخوف) فشعرت بالخوف، فاقتربت منك أكثر واحتضنت ذراعك، وقلت لك: لا تحزن. فقلت لى: "صرت كهلاً يا حبيبتى". فشعرت وقتها أن عذابًا لا يتحمَّله بشر تنوء به روحك دون أن أدرى سببًا، أو كيف شعرتُ أنا الطفلة بك، وتمزق قلبى وأنا أراك ترقص رقصة طير ذبيح وأنت ترسم بأقدامك على الرمال دوائر تتداخل، وتكبر، وتزداد اتساعًا كأنها ترنو للأبدية، ولمحت فى عينيك دموعًا حقيقية... كنت تبكى.

كانت الدوائر التى رسمتَها تكبر وتكبر حتى شعرتُ أنا أنها دوامات تخرج من داخلك.. كنت صامتًا لا تقول شيئًا.. رميتَ بنفسك فوق الرمال، فجلستُ وأخذتُ رأسك وأسندتها على حجرى، فغفوتَ كمغمَى عليه، وحين أفقتَ من غفوتك.. ابتسمتُ لوجهك الحبيب، وأخبرتك عن القمر الذى تشبهه، فقمت قائلاً: "يجب أن ننزل البحر قبل العودة للبيت". قلت لك إنه بانتظارنا، فقلتَ ضاحكًا: "أريد أن ألقى بنفسى فيه حتى أذوب فى مياهه".

شعرت بخوفك رغم ضحكك وهزلك.. ونزلنا البحر وأنت تحملنى بين ذراعيك وتلهو معى وبى، وحين خرجنا للشاطئ كانت عيناك تمسحان الماء عنى وأنت تحملنى بين ذراعيك لا تريد أن تفلتنى، وفى عينيك نظرة ملؤها شجنٌ، تتوزع فى أرجاء الكون، وتمسح بحزنها الشفاف وجع الأماكن.

قلت لى وأنت ترتعش مع نسمات الهواء الشمالية: "أنا الآن طفل مثلك فرح بالبحر... لكننى خائف أن أعود له وحيدًا".

كان الخال كل ما أمتلكه كطفلة صغيرة فى حياتى، كان حنونًا ودودًا لم يرزقه الله أبناء فتركتْ له أخته ابنتها الوحيده لتربَّى بحضنه؛ فأعطاها من ينبوع حنانه فيضًا من أبوة وأعطتها زوجه تجسيدًا للأمومة بفيض من حنان الذى فقد نعمة الإنجاب، وكنت الطفلة التى علمها حب الحياة واتساع رؤيتها مراعيًا قيم المجتمع

السائدة آنذاك. كم كان عاشقًا لتراب الوطن وهو ابن التجربة الناصرية حبًّا وإيمانًا ومشاركة، اعتنقها بكل ذرة فى دمه كان منفتحًا على العالم ومحبًّا للمعرفة ومتمتعًا باتساع الرؤية واستيعاب الآخر حتى لو طفلاً. أتذكر يومًا استيقظت من نومى لأقص عليه ما رأيته بمنامى، لم يكن عمرى قد تجاوز السادسة وأخبرته أننى زرت أقاربنا المتواجدين بحى السكاكينى وأننا قد جلسنا عندهم أنا وهو وكانت صاحبة البيت تدعى أمينة وقلت له أسماء أبنائها وبناتها، وحددت له اسم الشارع ورقم البناية، وذكرت له أن الست أمينة تعمل بالخياطة وأنها كانت تحدثنا وتعمل على ماكينتها وأننا قد تناولنا الغداء ببيتهم وعدَّدت له أصناف الطعام.. ابتسم الخال وضمنى لصدره معتزمًا أمرًا لم يصرح به لأحد! فقد عجل بأخذ إجازته السنوية والتى نقضيها جميعا فى القاهرة وطنطا مناصفة ونزلنا إلى القاهرة. ترك خالى زوجته وجدتى وخالتى فى اللوكاندة التى تعودنا النزول بها كلما أتينا للقاهرة بالإجازة السنوية وأخذنى إلى حى السكاكينى حيث أقاربنا ووصلنا إلى الشارع، وأمام البيت وجد النمرة التى ذكرتها له ورأى بعينيه الزخارف التى كانت تعلو واجهة البيت والتى وصفتها له وأنا أقص عليه حلمى وتأكد مما قلته له.. صعد الخال إلى شقه الست أمينة كنت أسبقه إلى الباب وأدق بأناملى الصغيرة على الباب، فتحت سيدة جميلة الباب وقبل

أن ينطق خالى بأى كلمه كنت أحتضنها منادية إياها بخالتى أمينة والتى استقبلتنى بشوشة مرحِّبة بى وبخالى ودخلنا. عشت أنا فى البيت الذى زرته وأعرف كل ركن فيه من حلمى أما الخال فقد جلس مع الست أمينة راويا لها حلم طفلة آمن هو به وصدقته سيدة غريبة لا تعلم عنا شيئًا، والغريب أن السيدة قد قدمت لنا طعامًا كانت قد صنعته قبل حضورنا لمنزلها كان هو نفسه ما أكلتُه فى حلمى. نزلنا من بيت الست أمينة مع وعد منى بزيارته ثانية وأنا بغاية السعادة أما هو فقد كان واجمًا لا يجد تفسيرًا لما حدث كل ما نطق به لى كان اتفاقًا ألا أخبر أحدًا عن زيارتنا لحى السكاكينى، وقد وعدته. والاتفاق الثانى ألا أروى أحلامى لأحد حتى هو، وأيضا وعدته. ومرت أيام وسنون لم نتحدث عن هذا الأمر مطلقًا ولم يذكره هو أمامى مطلقًا. كان واجمًا من هول المفاجأة لأننا ليس لنا أقارب بالقاهره ولأننى لم أسمع مطلقا اسم السكاكينى من قبل وأنا طفلة صغيرة لا تدرك معنى ما حدث، وقد كنت مصدقة تماما أن لنا أقارب وأن الست أمينة هى خالتى، وما أخذنى عند تفكيرى بالموضوع هو كيف استوعب الطفلة بحلمها الغامض يا له من رجل كان أكثر حكمة من أن يستوعبه زمنه! ومرت أحداث لم ننتبه فيها أو لها إلا وقد أفاق على كابوس هز كيانه وجعل اليأس يسكن روحه وهو ابن التجربة الناصرية مؤمنًا

ومشاركًا فيها عاش حلمها وحلم القومية العربية عشق عبد الحليم وصلاح جاهين، غنى للثورة وحارب بشوارع بورسعيد مشاركًا فى صفوف المقاومة الشعبية والتى خرج منها وهو يغنى للنصر وللسد. كانت الإنجازات الثورية تتحقق أمامه وهو يغذى فينا أنا وإخوتى وأبناء جيراننا هذه التجربة حياة يومية، حتى جاء اليوم الذى دخلت فيه مصر الحرب مع إسرائيل ومنيت مصر بهزيمة يونيو.

دخل الخال فى حالة صمت رهيب سكتت معه روح الطفلة وغادرها بدون وعى عالم الابتهاج أفاقت من حالتها على صرخة مدوية للرفض، سمعت أذناها كلمة لا الرافضة تشق قلب الكون صادرة من قلب الخال الذى ارتدى ملابسه مهرولاً إلى الشارع الواسع ليذوب وسط الجموع الرافضة للهزيمة والتى استشعرت اليتم بتنحى القائد! كنت كطفلة لا أعى بالضرورة ما يحدث لكننى كنت أستشعر الخطر مع دوى الانفجارات وأصوات المدافع والقذائف والظلمة التى فرضت على حياتنا وحياة مدينتنا، وعند تراجع القائد عن التنحى عاد الخال للبيت وظننت أن حياتى عادت لسيرتها الأولى، لكننى فوجئت بقرار التهجير لنا من مدينتنا إلى بلد أكثر أمانا بعيد عن مرمى نيران العدو وكانت بحيرة المنزلة هى المخرج الوحيد. جمعت الأسرة أشياءها البسيطة والتى تعين على الحياة واتجهوا قبالة البحيرة، كانت يدى تتشبث بيد الخال والجو كان حارًّا خانقًا فى يوم من أيام يوليو الملتهب فى حرارته وأحداثه، مر الزمن سريعًا ووجدت نفسى داخل المركب الشراعى. ساعات طويلة مرت حتى أتاهم صوت المراكبى يعلنهم بأنه ضل الطريق وأنه سيتوقف عن السير حتى الصباح حتى لا يضلوا الطريق أكثر فى الرحلة التى كانوا يعلمون أنها لا تستغرق أكثر من ساعتين سيرًا فى البحيرة

حتى يصلوا إلى المنزلة ولكنهم قضوا ساعات النهار وبدأ الليل يسدل ظلاله على صفحة ماء البحيرة. وكانت ليلتنا بلا قمر.

ومياه البحيره راكدة كنفسى وقتها، واستغرب الركاب من طول رحلتهم وجدت الطفلة داخلى نفسها وبتلقائية تلصق جسدها أكثر بجسد الخال الذى أحاطه بذراعه مربتًا بيديه على ظهرى فاستعدت الأمان وسألنى إن كنت جوعانة، بنفس تلقائيتى رددت بالنفى فقد كنت أعلم أنه لا يوجد طعام مع أحد على المركب ولا حتى ماء للشرب.

ورأيت أحد الرجال يلتقط قطعة خبز من أرضية المركب وينفض عنها التراب ويطعمها لطفله الصغير الذى كان يبكى من شدة الجوع، أيضا حاول أحد الركاب أن يشرب من ماء البحيرة لكنها كانت مالحة، رايت هذا الرجل وهو يبول فى وعاء ويشرب ماء بوله من شدة العطش فتماسكت وأنا لا أستشعر جوعًا أو عطشًا وأيضًا تحمل إخوتى الذكور.

كان أهلنا يعانون جوعهم وعطشهم وأيضًا عبء جوعنا وعطشنا كأطفال.

قطع الخال تلك الحالة عندما دعانى للنظر إلى السماء لتأمل النجوم، ابتسمت ونظرت للسماء وأنا أضع رأسى على قدميه مستعيدة لحظات الصفاء التى كنا نحياها على شاطى البحر فى ليالى الصيف المقمرة. كانت الليلة من أقسى الليالى التى مرت بنا فى حياتنا وجميع من فى المركب أيضا فقد هربوا من الخطر المحدق بمدينتهم ليواجههم الخطر طوال الليل؛ قذائف ولهيب ولا أحد يعلم نهايته. ساد الصمت أرجاء المركب وحبس الجميع أنفاسهم، أما الطفلة داخلى فقد اختبأت بصدر الخال، وأحسست وقتها أن صدره جدار يحمينى من الخطر الوشيك بالرغم من سماعى دقات قلبه تنذر بوقوع خطر وشيك. مرت الدقائق والساعات واختفى صوت القذائف والانفجارات مخلفًا أدخنه تتصاعد للسماء، ومع ضوء النهار أعلن المراكبى أننا بالقرب من رأس العش، وكانت معركة رأس العش التى شاهدتها وأنا طفلة رأى العين وعشتها واقعًا مرعبًا مخيفًا ليظل بالذاكرة يطاردنى كلما خلوت إلى نفسى. فرد المراكبية القلوع وحددوا اتجاههم ووصلوا إلى أقرب شط كان لقرية مصرية من القرى الواقعة على بحيرة المنزلة والتى خرج أهلها صغيرهم قبل الكبير يحملون العيش والجبن والماء وافترشوا شط البحيرة فى مائدة بطول القرية، جلس الجميع وتناولوا الغداء وشربوا، كانت مائدة

أشبه بالموائد الربانية تجمع حولها الجميع يتناولون طعامهم والتقاط أنفاسهم بعد أن ارتاح الجميع فى تلك القرية المسماة أولاد حمام، كان أهلها الطيبون قد استقبلونا بالأحضان فتحوا قلوبهم وبيوتهم أيضًا ودعونا للراحة. كم كانت رحابة استقبالهم معينا لنا على نسيان مرارة الليلة السابقة، وبعد الراحة فى تلك البلدة الرحبة بدأ الجميع يفكر أين الوجهة التالية! هناك من قرر الاستقرار بالقرية وآخرون قرروا الذهاب إلى المنزلة أو المطرية، واستقر المقام بأسرتنا التى كان يقودها الخال أن يتجهوا إلى دكرنس إحدى مراكز محافظة الدقهلية. ركبت الأسره من القرية عربة نصف نقل بمساعدة أحد أهالى القرية حتى توصلهم إلى الجمالية، مركز فى المنتصف ما بين اولاد حمام ودكرنس، وقد أجلس الخال النساء بجوار السائق وجلس وزوجه مع الأطفال فى صندوق العربة حتى وصلنا إلى الجمالية وهناك استقللنا الباص الذى حملنا إلى دكرنس، وكان البحث عن مكان للإقامه وسأل الخال عن شقة للإيجار ولأن العائلة لم تحمل أى مفروشات أو أثاث أو مستلزمات للشقه فكان اقتراح الجدة أن ينزلوا فى لوكاندة وكان الرأى الذى أخذ به، ولحسن الحظ كانت اللوكاندة الوحيدة فى البلدة والمتواضعة الإمكانيات لصيقة بالاتحاد الاشتراكى والذى كان الخال عضوا فيه، فذهب لهناك

وعرَّف عن نفسه وقاموا بتيسير سبل العيش للأسرة التى ظلت إقامتها بهذه البلدة قرابة الأسبوعين حتى جاءت لحظة العودة. بعد سماعهم خطاب الرئيس بذكرى ثورة يوليو أدركوا أنهم دخلوا فى حرب الاستنزاف وأن الوضع سيطول فقالت الجدة صاحبة الكلمة المسموعة بالحكمة فلنعد إلى مدينتنا فرب هنا رب هناك، وعلى الفور أحضر الخال العربة التى ستقلهم حتى يصلوا إلى بحيرة المنزلة ومنها للمدينة التى غادروها عازمين النية أن يركبوا تلك المرة لنشا حتى لا يضلوا كما سبق. استقلوا اللنش الذى أخذ طريقه فى البحيرة ووسط الطريق علا صوت انفجار وتطاير شظايا، كان الانفجار فى موتور اللنش هذه المرة والذى أصاب السائق ومساعده بحروق شديدة، وكانت الطفلة داخلى وسط هذه الأحداث الجسام لا تستشعر الخطر لمجرد وجود الخال بجانبها. مرت لحظات حتى جاءت مركب شراعية قرر ريسها أن يقطر اللنش بعد أن علم بما حدث، عادوا لمدينتهم محملين بكل ظلال الرحلة التعيسة ويتردد فى آذانهم مقولة الجدة من خرج من داره اتقل مقداره. وعادت الحياة رويدا رويدا إلى وتيرتها الأولى تقطعها أحيانا صفارات الغارات وأحيانًا أخرى أصوات الطلقات والانفجارات تليها أصوات صفارات الأمان. لم يتبق من تجربة دكرنس داخلى سوى اندهاشى من حمل البنات لأوانى

المياه على رءوسهن وسيرهن بتوازن دون أن يسندنها بأيديهن، فحاولت تقليدهن بأن جئت بصفيحة وملأتها بالماء من الحنفية العمومى التى كانت بجوار اللوكاندة حيث إن اللوكاندة ليس بها ماء ولا بيوت البلد أيضًا. مشيت وأنا أحمل صفيحه الماء وأنا أزهو بنفسى وفجأة قررت أن أترك يديى وأسير فإذا بالصفيحة تسقط من على رأسى وتترك جرحًا فى يدى يبقى مع الزمن يحمل ذكريات رحلة اضطررنا لها خوفًا على حياتنا...

تحمل الثوانى ودقائق اليوم سيل ذكريات، يقتلع من أعماق البحر محارًا مغلقًا على روح حبيبى، وحين تُفتح تنتثر لآلئ روحه فأمسكها بعينى.

تترك روحى جسدى هائمة مع الذكريات، فتحملها الأمواج متتابعة على صدر البحر، تفرش عليه ملائكة بيضاء، تتراقص مع روحى المشعة بالحب والنور.

أطوى الخوف والحزن داخل محارة روحه، وأرسلها لأعماقى لتستقر فى أعماق البحر ساكنة حبات رماله، فتدوى الضحكة طفلة كصافرة مركب مبحر فى يوم بلا غيم ولا أنواء... تداعب أصابعها سطح البحر كما لو كانت تعبث بشعره، محاولة فصل

جسده عن السماء التى احتضنته فى الظلمة، لتتوه ملامحهما فى قُبلة عشق أبدى.

أتراقص فرحًا، وأنزلق على شفاه الشاطئ حتى يلامس جسدى زبد البحر المشتاق لقُبلة، تحكى تاريخ عشق أرواح هامت على شاطئه مدى أزمنة تتابعت بلا توقف.

أروى قصة طفلة مقهورة لبحر ليلى، يتوحد قلبى معه، فيهدهدنى، ويعزف أنغامًا سحرية فى نوتات صغيرة، تصرخ بالحزن والحب وصرخة غضب.

أذكر طفولتى على شفاهك الشاطئ مع رجلى الأول يحكى، وتبهره حكاياتى، ونعيش حكايانا سويًا؛ لكنه تركنى وحدى، مطمئنًا علىّ معك أيها البحر، فأصرخ:

لا تذهب... تعالَ أدفن دموعى فى عقلك، وأزرع ابتسامتى فى قلبك، فتضم الرأس والجسد، وتحنو كفك على ظهرى، وتلمس أناملك شعرى، فيتوارى المجهول، وتغفو العين، ويأتى سلام الروح.

ألقاك أيها البحر العشيق الفسيح، فأصرخ:

– هل يعجبك قدّى؟ لقد التفوا حولى كالغربان. نسجوا مؤامراتهم.. خلعوا عنى سترى قطعة قطعة... فطرحتَ ثوبًا من نور على جسدى كى تسترنى فى ظلمة ليل حالك عن كل

الأعين المتلصصة... وإذ التقيت بك احتضننى تتابعُ موجك الفضى يلوِّنه القمر، ليستقبل الثدى اليقظان يبث غرامك فى جسدى خمرًا يتدفق فى شريانى، فأتراقص على صفحة موجك فى لحظة عرسى كى ترانى أعينهم، ويفضح همسى غدرهم، وأعزف بالعشق أنغامًا صغيرة للحب، وصرخة غضب، يذيبها ملحك فى مياه أعماقى.

تهيم روحى للقاك... أتوق لعناقك حتى يسرى ماؤك فى عروقى ويشكل ملامحى. أبحث فيك عن روح تماثل روحى.. حبيب مفتقد عيناه بعمق الكون والحياة، يحمل العمر كله، ويطوى سنواته فى هياجٍ مستعر، ويأخذ روحى لتهيم فى أعماقه معيدًا لى براءة الطفولة، مخرجًا من أعماقى نشوة المحار المغلق على الروح، أصبُّها فى جسدك حبيبى زبدًا يتشكل عرائس ملائكية، تتراقص مع ضوء الروح، فأطوى الخوف والأحزان، وأرسلها لتستقر بأعماقك، لاهثة بفرحة لقاك. تحتوينى ذراعاك.. تحملنى كطفلة.. تهدهدنى.. فأدفن رأسى بصدرك أشتمُّ رائحته، وأهرب من المجهول إليه.. أغتسل بمائك فيعيد إلى جسدى رعشاته، ويسرى نبضك بداخلى فأرقص وأضحك وأبكى، لكن تأبى جنيَّة البحر ألا يكون لقاء فتمسك بى، وتدفع برأسى تحت مياهك... فأغرق.

طفلة وحيدة أنا... وجدت نفسى وسط عالم من الذكور الذين لا يعرفون عن الأنثى إلا أنها عورة.

عورةٌ أنا! رغم ما جلبتُ لهم من فرح وبهجة يوم ولدتُ.. هو الوحيد الاستثناء بينهم.. هو القلب والعقل.. هو البراح الذى احتوانى، واحتوى مشاعرى وعقلى، وعمل على تنميتهما. هو من أسمانى؛ فقد اجتمعت العائلة لاختيار اسم لى وتباروا فى اختيار الاسم فحسمت الموضوع جدتى بأن أحضرت لكل واحد شمعة أضاءها وأطلق عليها الاسم الذى اختاره، ثم وضعوا الشمع على الطاولة وسهروا قبالته حتى يذوب. وقالت جدتى آخر شمعة ستذوب سيصبح الاسم من نصيبها، وقد كان أن ذابت كل الشموع إلا شمعته، خالى الحبيب هو من أسمانى ومنذ هذه اللحظة قرر أن أكون ابنته التى يرعاها فقد تكفل بمصاريف تربيتى وتعليمى وعفى أبى من مسؤلياته المادية تجاهى.

كنت ابنته التى لم ينجبها حيث حرمه القدر من نعمة الإنجاب... ربانى بإحساس الأب والصديق، الأخ والحبيب، ولحسن حظى تركنى أبى وأمى لأعيش مع خالى الذى كان يسكن عمارة ملاصقة لسكن أسرتى، فقد كان يقطن بحى العرب. وعندما نقلت أمى إلى حى الإفرنج بعد أن وجد أبى سكنا فى الحى الراقى الذى يسكنه الأجانب وأثرياء البلد، وهى الطبقة التى يتعامل معها

أبى خصوصا الأجانب، حيث كان يدرس لهم اللغات والترجمة بمعهده الخاص الذى افتتحه هناك لتعليم اللغات – نقل خالى سكنه بجوار أمى حتى لا يبتعد عن أخته الحبيبة.

ربانى على حب الحياة والطبيعة.. علمنى أن أحترم كينونتى كطفلة بنت، وفتاة وامرأة أنثى.. عودنى على حياة البحر، وعشق طيوره البيضاء التى تبشر البحَّارة بالوصول.

كنت ابنته المدللة التى لا يرفض لها طلبًا، وصديقته الأثيرة التى يبوح لها.

علمنى كيف أفكر وأحب بعقلى.. أن أمارس التفكير. وأكسبنى مهارة اتخاذ القرارات، والإصرار على قناعاتى، وإجبار الآخر على قبول خياراتى. كلمة واحدة تختصر ما فعله بى: جعلنى أنا.

كنا نسير على شاطئ البحر كما تعودنا، هو يحكى لى وأنا أسمع له، فتنحت كلماته عقلى. جلسنا نستريح على رمال الشاطئ، ومر بنا عراف قال له إنه يرى ما لا عين ترى، فضحك وطلب منه أن يقرأ طالعى، وطالعه.

مد له كفه وعلى شفتيه ابتسامة هازلة والعراف يتمتم بكلماته التى اعتاد ترديدها، والتى يحفظها خالى عن ظهر قلب، وضحك ضحكة عابثة حين قال له العراف إنه سينجب أطفالاً كثرا غير ابنته الوحيدة وهو يشير إلىَّ.

طلب منه أن يقرأ طالعى حين لاحظ نظرة عينى الناطقتين برغبتى فى مشاركته ما يفعل كما تعودنا. جلس الرجل القرفصاء فى مواجهتى وأمسك كفى الصغيرة، وفجأة تغيرت ملامح وجهه، وبدت عليه علامات اهتمام بالغ وفى صوت أجش متحشرج خرجت كلماته من حلقه كما لو كانت آتية من جوف بئر ناضبة عميقة وهو يقول: لن تبلغ الأربعين.

نهض خالى من جلسته، ودفع الرجل من كتفه فألقاه على الرمل وهو يسبه ويتهمه بالنصب. نظر الرجل فى عينيه بثقة غريبة وهو يطلب منه (الحسنة) فألقى له بورقة نقد وجذبنى من يدى بعيدًا عنه وقد لمعت عيناه ببريق غضب، وتغضن جبينه، وسقطت ملامح وجهه فى أسى غامض.

عرفت حين كبرت وبعدت المسافات بين الأحداث أن خالى كان يكره سيرة الموت، والأغرب أن نبوءة العراف أخطأتنى وأصابته، فمات أغلى الناس وأعزهم على قلبى دون أن يجتاز حاجز الأربعين.

سرنا متجاورين وهو ممسك كفى بقوة، وقدمه التى تغوص فى الرمال من قوة خطوته تدفع الرمال فى كل اتجاه حتى دخل الرمل فى عينى، فطلبت منه أن يتوقف عن ذلك، فاحتضننى وهو يقول لى أن ما قاله العراف مجرد لغو قول، وأن لا أحد يستطيع أن

يعرف المستقبل، وأنى لا يجب أن ينشغل بالى بما قاله هذا العراف المخرف، على حد قوله. فابتسمت وأنا أقول له أن لا أهمية للموضوع بأكمله، فأعاد احتضانى وقبلنى، وحين أشاح بوجهه لمحت لمعة دمع فى زاوية عينيه.

سرنا عائدين للبيت فى صمت، وحين وصلنا دخل حجرته ملتزمًا السكون، وبقى عدة أيام ساكتًا على غير عادته، لا يبتسم، ولا يهزل، ولا يلقى بضحكاته التى تصنع بهجة البيت.

أحسست رغم صغر سنى أن شرخًا صنعه هذا العراف المجهول فى روح أعز الناس، فبدا لى فى صورة شيطان يطاردنى فى أخبث كوابيسى، فأراه يضحك ضحكته المجلجلة فى وجه خالى الذى يسد أذنيه بيديه وينظر إلىّ مرتعبًا.

بدأ خالى صديقى يخرج رويدًا رويدًا من حالة الاكتئاب التى أدخله فيها العراف، فكان يخرج لسطح البيت ويمضى وقتًا طويلاً فى التأمل، وبدأ اهتمامه بتربية الدجاج، وخص أحد صغار الديكة من النوع الشركسى بعناية خاصة حين لاحظ أن الديكة الأخرى تنقر رقبته العارية من الريش، فأصبحا صديقين!

أطلق على ديكه المفضل اسم "الروسى" وأصبح هذا الديك فردًا من أفراد العائلة، يحق له ما لا يحق لبقية الدواجن التى تربيها جدتى، فكان يدخل الشقة يتجول فيها بحرية فهو تحت حماية

الخال، ويأكل ما يحب من أطعمة يستطيع الوصول إليها، وساعده الحب الذى يحظى به والرعاية على النمو أكثر بكثير من بقية الدواجن حتى بدا كديك رومى فى حجمه، تخشاه الدواجن الأخرى بعدما كانت تضربه وتنقر عنقه. كانت علاقة "الروسى" بخالى أشبه بعلاقة كلب بمربيه أكثر منها علاقة ديك تمت تربيته بين الدواجن، فكان يشعر بخالى حين يأتى للمنزل، ويذهب إليه مرحبًا كجرو يهز ذيله فرحًا بصاحبه. جاء خالى من العمل، بعد يوم شاق من أيام عمله فوجد جدتى قد أعدت له مائدة حافلة بما لذ وطاب مما يحب ويشتهى من الأطعمة، فأخذ يشم رائحة الطعام بنشوة، وصعد فوق مائدة الطعام الكبيرة وجلس متربعًا فى انتظار الوليمة التى أعدتها جدتى.

جاءت جدتى بصينية الطعام النحاسية الأكبر وقد رصت فيها أطباق الأرز، وأوعية الشوربة، والخبز الحار المقطع لأرباع أرغفة، ووعاء كبير ملىء بالملوخية الخضراء، ويتوسط الصينية ديك ضخم مسلوق ومحمر.

ابتسم خالى مبتهجًا حين رأى الوليمة التى أعدتها له جدتى ونظر اليها يسألها إن كانت أم عزوز قد جاءت من قريتها بهذا الديك الرومى الشهى، وهل أحضرت معها من بط دمياط الفاخر؛ وحين ردت عليه جدتى أنها لم تحضر، سألها: من أين أتت إذًا

بهذا الديك؟ وحين ردت بأنه "الروسى" لم يشعر أحد من الموجودين بالغرفة يستعدون لتناول الطعام إلا بخالى يطير من فوق المائدة الجالس عليها، ويمسك بالصينية الضخمة، ويطوح بها من البلكونة المفتوحة للطريق بما عليها من أطباق وطعام، ويدخل غرفته مجهشًا بالبكاء، وأمضى عدة أيام لا يأكل ولا يشرب، ولا يغادر غرفته إلا لدخول الحمام. ظل طويلا مقاطعا من فى البيت إلا أنا، كان يتعمد إحضار طعام من الخارج ليأكله بصحبتى ممتنعا عن تناول أى وجبة داخل البيت. لأيام لم تفلح فيها توسلات جدتى وزوجته فى إثناءه عن موقفه حتى تعرض لمرض مفاجئ، حالة من القىء ومغص شديد. تم استدعاء الطبيب الذى أكد أنها حالة تلوث أصابته من تناول شىء خارج البيت وأمر له بتناول المسلوق، فاضطر إلى العدول عن موقفه. وكأن له ثأرا عندهم فهو لا يتحدث معهم إلا قليلا، ورغم حبه واحترامه لجدتى فإن محاولاتها للصلح باءت بالفشل مع بعض الجمل التى كانت تنال زوجته عند تقديم الطعام له والتى كانت تحمل السخرية مما فعلوه بديكه الأثير بعد مدة ليست كبيرة ولكن إحساسها عند الطفلة دهرا عاد لسيرته الأولى وعاد يربى الروسى الجديد الذى سمعت جدتى تخبر زوجة خالى أن هذا الديك لو أصبح عملاقا فإن يديها لن تناله بالذبح حرصا على إرضاء ابنها

البار بها. وكانت الجدة خليطا من الحكمة والقوة والرقة وكانت الكلمة المسموعة لدى الجميع، آرائها صائبة وحكمتها تتخطى حدود العقل، كانت تلفنى بحنان غامر وتخصنى بمثل ما اختصت به خالى من محبة فكانت البديل فى أوقات غياب الخال بعمله، وكانت حكاياتها التى ترويها لنا أنا وإخوتى تحمل الجمال والحكمة وترمى بى أنا التى كنت أنام بحجرها لدنيا الخيال الرحب تصنع عوالم موازية لعالمنا وهى صاحبة الفضل الكبير علينا جميعا فى شغفنا بالقراءة والاهتمام بالشأن العام فقد كانت متابعة جيدة لنشرات الأخبار، ليس ذلك فقط لكنها كانت محللا جيدا للأحداث وكانت حازمة لكنها فى الحق لا تفرق بين أبنائها والأغراب، حتى أننى لم أسمع يوما من أبى أو زوجه خالى أى كلمة توحى بعدم رضاهم عنها، بالعكس، كانت المحبة والاحترام هما ما يغلف هذه العلاقة الجميلة على العكس تماما من معاملة الخالة الأخت الكبرى للجميع حتى الأطفال ولم أكن أعلم سببا لإصرارها أن تحرمنى من حضن جدتى لأنام فى حجرها وهى تغطى وجهى بطرحتها السوداء وتخبط على ظهرى فتشق صدرى من الخوف والألم. وكان الخوف من حكاياها المرعبة التى كانت تدخلنى فى جب مظلم تنطفى معه الروح وتغتال البراءة، كنت أكره ليالى نوم خالى فى عمله، فظروف عمله تضطره للعمل ليلا نصف الوقت

هذه الليالى كنت أحرم فيها من حضن الخال وخيال العالم السحرى لجدتى، وأستجيب خوفا لسماع حكايا الخالة المرعبة. وقد كانت جدتى تتحاشى خالتى وتعطف عليها وتقدر ظروفها السيئة التى منيت بها فكان قدرها أن تتزوج بعيدا عن الأسرة فى مدينة بعيدة لا تصلها أخبار من أهلها إلا على فترات متباعدة وكان زوجها يعانى من ضيق اليد ومن الأمراض أيضا وكانت الخالة قد أنجبت ثلاثة أبناء ورثوا جميعا مرض والدهم الذى مات فقيرا مخلفا وراءه أرملة وثلاثة أبناء ماتوا تباعا نتيجه المرض، ففقدت خالتى الزوج والأبناء ومعهم فقدت التسامح، ولذلك كان لزاما على الجميع أن يعاملها بحرص وحذر حفاظا على مشاعرها وتقديرا لما مرت به من فقد أبنائها وقد كانت هى جميلة الملامح عكس طباعها ولذلك لم يجرؤ أى شخص للتقدم للزواج منها خشية أن ينال من طباعها الحادة. كانت جدتى تقدر ذلك فكانت تتركنى لأنام فى حجرها فيطالنى الخوف والرعب من حكاياها ومن ظلمة طرحتها التى تمنع عنى ضوء القمر والهواء، تمنع عنى وجودى.. ووجودى كان يتلخص فى فعل بسيط: أن أشتمَّ رائحة البحر.

الخوف

زرعوا الخوف فى قلوبنا منذ كنا صغارًا.. خوف من الظلمة.. من الوحش.. من الجن.. من أبو رجل مسلوخة.. من كلاب الطريق وصقور السماء والغرباء.

مددتُ يدى لأزرار ثوبى وفتحتها عنوة، تقطعت الأزرار وتساقطت على أرض الغرفة.. تعريت فى وجه الليل، وأخذ برده يقتحمنى وينبض فى داخلى وينبض. ارتميتُ على الأرض صارخة أمى لماذا تركتنى بعد أن تقاربنا وأصبحنا صديقتين وكأنك أنت وأبى ادخرتما هذه العلاقة لأواخر عمريكما فكم من الحكايا والأسرار رويتما على مسامعى وأسررتما بها لى، لم أكن أعلمها طيلة حياتى.. عنكما وعن مشاعركما تجاه بعضكما وتجاه البشر الذين تعاملتما معهم على مدار تاريخكما وكيف كان والدى فى أيامه الأخيرة وبعد مغادرتى للمدينة التى سجنت بها من لحظة هجرتنا وأنا طفلة مرورا بزواجى وإنجابى لأبنائى ودراستى الجامعية وعملى وانتهاءً بانفصالى وانتقالى لمدينة قريبة من مدينتنا فقد قررت ألا أعيش فى مدينتى بعد أن غادر عالمها

وعالم الأحياء الخال والحبيب الذى أصبحت المدينة بعده مدينة للأشباح تغزونى فيها الكوابيس وتدهمنى الذكريات المريرة وبالرغم أنى لم أحضر وداعه فقد كان موته مفاجئا ولكنه متوقع بعد أن ودع مدينته وحلمه وباتت الأيام تشبه بعضها. كان غريبا يحيا وغريبا يمشى وغريبا سار وحده لمدينة الموتى قررت يومها أنه باق لن يموت لم يعترف عقلى بموته ولم تكسُ مشاعرى ملامح الحزن فأنا بعيدة عنه من فترة إذا هو موجود فى مكان يتعذر على كلانا رؤية أحدنا للآخر. استقررت فى مدينة قريبة من مدينتنا وكنت على تواصل مع أبى وأمى هما يأتيان لزيارتى نهاية أسبوع وأنا أزورهما نهاية أسبوع وكان أبى يصحبنى وننزل للتسوق أو الجلوس على أحد الكازينوهات التى ما زالت تحمل طابع المدينة، يحدثنى ويسترسل فى استرجاع ذكرياته، ولما كان يخاف علينا أنا وأمى بالرغم من تعليمه وثقافته الغربية فإنه عند منطقتنا أنا وأمى ريفى بامتياز. وعرفت أن النماذج التى تعامل معها أبى وانفتاحها الغربى جعله يشك وأيضا يخاف. حدثنى عن أصدقائه عن إخوته أعمامى وزوجاتهم، اللاتى تسببت إحداهن فى طلاقه من زوجته الأولى قبل أن يتزوج أمى. أدركت وقتها لم كان يفرض علينا جدارا من العزلة فى التعامل مع أعمامنا وأبناء وبنات أعمامنا خوفا من تكرار التجربة.. فقد كانت زيارات أعمامى لنا أو زياراتنا

لهم تتم بمواعيد مسبقة لا بد من تواجده فيها. كانت تلك الزيارات تتم فى المناسبات فقط أما أهل أمى فكانوا متواجدين بحياتنا مثل الهواء الذى نتنفسه وبدون أى رقابة من أبى. كان الصدق هو الغلاف والعنوان لكل ما تعرى به أبى لى، لم يخجل أن يحدثنى عن حبه لأمى وغيرته المرة –بتعبيره– التى كانت تخنقها وهو يدرك ذلك لكنه لم يستطع أن يغير قناعاته ولا حبه لها أما هى فقد كانت أمى التى افتقدتها سنوات طوالا ووجدتها حينما وجدت نفسى وأخذت قرار الانفصال عن زوجى والحياة مع أبنائى بمدينة وحدى أواجه الحياة والبشر والغربة حتى تكسبنى التجربة، كانت الدعم لى مع أبنائى وكان إحساسها أن انتصارى هذه المرة فى العيش حرة واختيار شريك حياة أحبه وأتفهمه بمثابة انتصار لهزيمة إرادتها كامرأة، كانت تستشعر القهر رغم حب أبى واحترامه لها إلا أنها لم تك يوما صاحبة إرادة أو اتخاذ قرار وكانت تلك الفترة من الحياة التى أحسست بوجود الأم وحبها، والمحتمل أنها كانت موجودة وحبها أيضا لكننى من كان يغمض مشاعره عنها.
فى تلك الفترة أتاحت لنا الظروف أن نجلس فترات طويلة فقد كانت تأتى لترتيب حياتى الجديدة خاصة وأنا فى مدينة نصفها ريفى ونصفها حضر فكان لا بد من تواجد أحد بالبيت على الأقل فى الفترة الأولى من سكنى.. تحدثت كثيرا عن أمنيتها فى التعليم

الذى حرمت منه لأنها كانت بمدرسة الراهبات ولأنه حدث أن أحبت طالبة مسيحية مدرسا مسلما وهربت معه ولأن بورسعيد فى الأربعينيات من القرن الماضى كانت مدينة صغيرة أهلها يعرفون بعضهم البعض وأيضا يعرفون ما يدور من أحداث فقد اتخذت أمها قرار إنهاء التعليم وأيضا فرض عليها التزوج بمن اختارته أمها دون أن تراه، وتزوجت وهى طفلة لم يتجاوز عمرها الرابعة عشرة فحرمت من دراستها وتم تزويجها ولظروف لا تعلمها هى أو المحتمل أنها لم ترد أن تصرح بها لى جاءت جدتى إلى بيت أمى وحملت أثاث المنزل وكل أشياء ابنتها التى كانت تبكى فلم يمر على زواجها أكثر من ثلاث شهور كانت مدة كفيلة أن تتكون لدى أمى مشاعر تجاه زوجها فلقد أحبته، لكنها لم تجرؤ على معارضة أمها التى اقتادتها أمامها إلى بيت العائلة دون أن تدرى لم تزوجت ولم طلقت! لكنها لا تعلم إلا شيئا واحدا هو أن زوجها الأول ظل يمر أمام أى بيت تسكن فيه من يوم غادرت بيته وحتى غادر هو الحياة على أمل أن يراها أو يحادثها وأنه لم يتزوج بعدها أبدا. كان قهر أمى حافزا أكبر لى للصمود كنت آمل أن أحقق انتصارا وحيدا فى حياتها حتى تطمئن، فاستقلالى بحياتى وانفصالى عن زوجى كان بالنسبة لى من وجهة نظرها انكسارا فى مجتمع يدين المرأة المطلقة حتى وإن كانت تعمل وتصمد لكى تربى أبناءها

وأيضا كان هزيمة من وجهة نظر أمى لأننى تحملت خسائر مادية ونفسية أكبر من طاقة احتمال أى رجل يواجه الحياة ولم تكن الحياة أرحم من البشر؛ فقد كان راتبى الحكومى يعادل إيجار الشقة التى استأجرتها فمن أين آتى بباقى مستلزمات الحياة وأواجه أطفالى بمطالبهم وكان أطفالى أرحم فلم يطلب منى أى طفل طلبا واحدا حتى لو كان جوعان وفكرت أننى إذا اعتمدت على مساعدات أبى وأمى فلن أعتمد يوما على نفسى واتخذت القرار بألا أقبل مساعدات من أحد وضغطت عند أبى وأمى حتى استجابا وقررت أن أعمل بجانب وظيفتى وأعطيت دروسا لجميع مراحل التعليم، أخذت من راحتى حتى أوفر لأبنائى حياتهم البسيطة كى أكفل لهم التعليم وهم فى مراحله الأولى وأيضا أكفل لهم الغذاء المناسب كأى أطفال فى سنهم. وللحق فقد تحمل أبنائى وساعدونى على المضى فى الحياة وهم معى نتدبر حياتنا معا صامدين مع الزمن أمام احتياجات الحياة، ففى أحيان كثيرة كنت أضطر للعب مع أولادى داخل المطبخ ونحاول صنع فطائر من الدقيق والماء والسكر ويلهو أطفالى فرحين بما نصنعه وهم لا يعلمون أننى أوفر القروش القليلة التى معى كى أعطيها لهم فى ذهابهم للمدرسة صباح اليوم التالى فكنت أفاضل بين شراء طعام بها أو توفيرها لهم كنت أنظر لحظتها لأولادى الذين يمارسون

البهجة باللعبة وهم يصنعون بأيديهم الصغيرة فطيرة السكر وأبحث داخل البرطمان عن بقايا عسل أسود أضعه فى الطبق كى تكتمل وجبتهم وأستشعر البهجة تسرى داخلى وأردد كم هم نبلاء أن مارسوها كلعبة وأزالوا عنى هما كان يجثو على نفسى وأنا أحملهم معى حياة فقيرة بمدلولها المادى غنية بمدلولها المعنوى.. كانوا مسئولين ومتماسكين أمام ظروف الحياة لا أعلم لم يتدفق سيل الذكريات على الرأس المجهد وأزعجنى تواترها متلاحقة تضغط على روحى وتسمرت يطل من عينى قدرى، وتموت صرختى فى داخلى حيث يصرخ فى داخلى صوت جدتى وصوت أمى شمس مفقودة، وأرض غفت على أحلامى واغتالتها.

أمى...

تركتنى فى العراء حائرة فى عيونى وجوم العالم ودهشة الضياع وخوف الموت... لم الآن تموتين تاركة إياى فى العراء بعد أن وجدتك؟!

أمى...

وضعت الحزن بين جدار صدرى وقلبى، وتركتنى فى الفراش تتمتمين بدعواتك الصالحات، وبين ثوبى ولحمى سكن الخوف، يحفر فى لحمى مكانًا يرقد فيه. اعتدتك..

فالحب عادة، والحرية عادة، والنسيان عادة، والخوف واقع تصنعه العبودية للعادات والبشر.

تكتمل فى رأسى حكايات بشر وجن وخيول، وبعدما تسكننى لا أجد جدوى من كتابتها على ورق، فتظل حبيسة تصرخ فى داخلى تبحث عن كوة ما تخرج منها، فأعاندها وأنا خائفة منها، وهى خائفة من سجنها داخلى.

أحببت رؤية شمس الغروب تسقط فى أعماق البحر كأنها تغيب فى المجهول، وظلالها الحمراء القانية بلون الدم، تعكس نفسى على مياه البحر الهادئة المستسلمة لسعير الشمس.

ظننت الشمس تغسل نفسها فى مياه البحر من أدران النهار مع الغروب، فتبعث فى داخلى إحساسًا بالسمو والسكون، ولكنى اكتشفت خدعة الغروب حين نضجت.

أخاف الليل وأعشق البحر... أجلس ممزقة فى ليلى على شاطئ بحرى، واضعة ساقًا فوق أخرى، أحاول أن أستنطق الموج الصاخب عن أسرار تؤرقنى، فيجيبنى زحفها الرتيب الكئيب بضحكة مجلجلة ساخرة منى تطالبنى بالصمت أو الصبر، فيزداد خوفى من الليل. كنت أستغرب خوفى المرضى من الظلمة فسألت أمى ذات يوم فأجابتنى بأن الحروب فرضت علينا الظلام وارتبط الظلام عندك بالقذائف والانفجارات، إنه خوف طبيعى لكن لا بد

أن تدركى أن الحروب انتهت. تساءلت بداخلى هل الخوف انتهى؟! أشك. كانت أمى إنسانة عادية من وجهة نظر أبى فهى زوجة وربة بيت وهى دائمة الحركة لا تكل طوال يومها حتى نغفو جميعا، لا أتذكر أنى رأيتها نائمة إلا فى مرات قليلة وكانت صارمة بدون عنف. أتذكر فى ليلة عيد من أحد الأعياد وكنت عائدة مع زوجة خالى من عند الكوافير حيث صفف لى شعرى وكنت عائدة فى منتهى السعادة، طلبت زوجة خالى منى أن أصعد لبيتنا حتى ترى أمى شعرى وفعلا صعدت وإذ بأمى تطلب منى أن أستكمل معها مسح بلاط الشقة! فرفضت لأنى جئت من عند الكوافير بحسم قالت أمى امسحى وإلا سأمسح البلاط بشعرك. رددت بعناد لن أعمل. فما كان منها إلا أنها نفذت تهديدها وذهبت توسلاتى أدراج الرياح هى وما صنعه الكوافير. فى تلك اللحظة كرهت أمى جدا لكن الخال محا الفكرة والكراهية من نفسى بكلمات بسيطة أعقبها اعتذار منى لأمى التى رأيت الدموع تتحجر فى مقلتيها لما فعلته بى ليلة العيد، كانت المرة الوحيدة التى تمارس فيها أمى العنف معى.

لم الآن تتدفق آلاف الحكايات، تثقل الرأس المجهد! أحاول أن أقهر بها الليل وحين أحاول قهر الليل يقهرنى... يخلو الليل من

الحب، ويغتال العشق، وتقوم فيه شياطين الخوف راقصة تمزق أرواح السالكين، ويسكنه الموت.

أسبح فوق دموعى، فأجدنى غارقة فوق فراشى، يصرخ صوت فى رأسى:

"اليوم خوف مر، والغد خوف شر، والمستقبل خوف الموت".

ظلت واقعة ليلة عودتى من عند الكوافير فى ليلة العيد وأنا طفلة ومسحها لشعرى عالقة بذهنها، لم تصرِّح بها مذ كنت طفلة وتناسيتها أنا مع الأيام ومع بهجة أعياد تلته وفرحة أمى بى عند عودتى من تصفيف شعرى وأغلب الظن أن تلك الفعلة لم تمر عليها مرورا عاديا. وحين كبرت وطلبت منها أن تشترى لى بوستيج شعر كنت طالبة بالثانوى وقتها قالت لى لن أشتريه بل سأصنعه لك من شعرى لم أفهم مقولتها إلا عندما وجدتها قد أتت بالمقص وقصت جزءا كبيرا من شعرها وأحكمت رباطه وارتدت ملابسها وصحبتها إلى الخارج فطلبت منى الذهاب إلى الكوافير الذى أصفف شعرى عنده فى الأعياد. كان مصرحا لى من أبى أن أذهب بصحبة أخى الأصغر أما أمى فلم يصرح لها مطلقا. طلبت منى أمى أن أنادى الرجل خارج محله لتتفق معه وبالفعل خرج محاولا دعوتها للدخول ولكنه قوبل بالرفض منها وبعد الاتفاق على الشكل والسعر تركت أمى الشعر والعربون للرجل

واصطحبتنى عائدة للبيت فوجدنا والدى عاد من عمله وعندما أخبرته أين كنا هاج وثار وتوعد لولا تدخل إخوتى الكبار واستيضاح الأمر بأنها لم تدخل محل الرجل ولكن حادثته بالشارع. بعد أن استقر الأمر وهدأت ثورة أبى سألتها لم فعلتِ ذلك؟! أقصد قص شعرها والتضحية به، فقالت تكفيرا عن واقعة مسح شعرك ليلة العيد وأنت طفلة. يااااه يا أمى!! أحداث كثيرة مرت من هجرة وحروب وذكريات تتراكم مع الزمن وأنت تقفين عند اللحظة وتكفرين عنها وتصرحين بذلك، أى النساء أنتِ! تحملتِ إهانات أبى المتوقعة لذهابك لمكان حرم عليك الذهاب له من أجل أن تكفرى وتعتذرى عن خطأ حدث لطفلة فى الماضى فأضفتِ لمنظومة حياتى إضافة جديدة: مسئولية الاعتراف بالخطأ والتكفير عنه.

سلمت سفينتى لأمواج الأقدار، فتقاذفت روحى تيارات يأس وخوف جارفة، وطاردنى حلم قاهر أمسى لا يغادر نومى... كنت أرانى على شاطئ البحر جالسة أنظر للسماء ملونة بألوان شفق الغروب.. أتى ليل جثم على صدر النور، وحين حاولت النجوم أن تضىء ظلام الليل، اغتالت سحابة كثيفة بلا مطر نور النجوم، والتحمت بأمواج قهر عاتية، خطفت السماء وأطفأت القمر، وهبت رياح شيطانية هوجاء، وفتح الليل فاه فإذا به

معبر إلى الجحيم، وخرجت من فم الليل شواظ لهب أحرقتنى، وحين صرخت شعرت بيد حانية ترطب جبهتى الملتهبة، وحين أفقت كنت أرجف من الحمى فى فراشى. وتساءلت هل هى يد أمى أم يد خالى أم جدتى الطيبة الحنون لكنهم جميعا رحلوا تاركين عالم الأحياء الموتى تمتمت لماذا تركتمونى وغادرتم جميعكم؟ غادرتم وأنا هنا وحدى أنا والخوف وتلك الذكريات التى تتناولنى ليلا فتحرم علىَّ النوم!

عشش بداخلى الخوف، ونسج خيوطه حول عنقى وأحكم رباطه، وأصبح يتلبسنى حتى صرت أكابر بشجاعتى مقاومة خوفى لأخفيه، وأزعم أنى قادرة على قهر الخوف والسيطرة عليه، وأتخيل قدرة مزعومة تقارن بين فعل آت لم يأت وواقع ضنين يخنقنى فيه خوفى.

الخوف موروث لا يمكننى الخلاص منه.. علمونى أن أخاف من ذنوب لم أقترفها.. علمونى أن أتراجع عن أفعال لم أرتكبها.. كانوا ثلة من مبتهجات ويتشحن بالسواد يحطن بى إحاطة السوار بالمعصم، وهن يضحكن ويتداولن كلمات لا معنى لها عندى.. كن يأخذننى ويقذفن بى بلا رحمة فى بئر الخوف.. لعنة الله عليهن وعلى الخوف. كانت تلك المرأة القبيحة ذات الفم المزموم واقفة وبيدها الخوف مجسدًا.. لم ينقذنى من خوفى ومنهن إلا

صوت أبى يسب ويلعن، ويختطفنى للأمان كفارس من خيال على حصان مجنح، طار بى فى سماوات حنان كنت قد نسيته، وحط بى فى فراشى مع لمسة حب، خالطت خوفًا استقر بأعماقى.

عندما دخل أبى إلى البيت كنت أموت رعبا فقد أدركت أننى اليوم ذبيحتهم، وكانت الخالة هى من دبر لحفل الذبح. اجتمعت النسوة وأحضرن الداية كى تقوم بعملية الختان لطفلة كانت تصرخ من مصير لا تعلمه كل ما كانت تدركه لون السواد الذى كانت ترتديه الخالة التى أحكمت قبضة يديها على الجسد الصغير وتطوعت إحدى الجارات برفع قدمى حتى ترى الداية ما سوف تقوم به!

كانت روحى تهرب منى وأحسست أننى ذهبت لعالم آخر غير الذى أحيا أفقت منه على صوت أبى يطيح بكل النسوة ويطردهن وسيل من الشتائم والتوعدات لأمى وخالتى التى تركتنى خالية من أى إنسانية. اقترب الأب فى حنو وجسده يرتعش ما زال وحملنى بعيدا عن المكان، ربت بيديه علىَّ وطمأننى وخرج ليواجه أمى وخالتى. كنت أستمع إلى ثورة أبى التى لم أفهم منها سوى أن هذا الأمر لن يتكرر ثانية. لم أعى لعبة القدر التى أرسلت أبى فى تلك اللحظة وفى موعد غير موعد عمله وكن قد تآمرن أن ينجزن المهمة قبل عودته من العمل هو والخال، واسترعى انتباهى عدم

وجود زوجة خالى أو جدتى لينقذننى من أيديهن إلا أننى عرفت بعد ذلك أن جدتى كانت غير راضية عن ذلك وبدلا من أن تدخل فى سجال مع ابنتها الكبرى خالتى ولأن خالى فى عمله بالبر الثانى من قناة السويس واستدعاءه يأخذ وقتا فقد أرسلت جدتى زوجة خالى لاستدعاء أبى من عمله لينقذ الطفلة من الذبح. كل هذه الأمور اتضحت عندما حضر الخال وأخبرته الجدة بكل ما حدث فعهد الخال والأب للجدة اتخاذ أى قرار يخص الصغيرة فى حال عدم وجود أحدهما. وتحررت من سطوة خالتى على أمى بهذا القرار.

تعذبتُ كثيرًا وضاعت براءتى رغم كونى لم أرتكب إثمًا.. عشتُ يا أمى حياة قاسية متوحشة حتى كادت روحى أن تموت، كان الخوف سيدًا فقد كنت أخافك كما أخاف أبى.. تحاصرنى التقاليد الموروثة، وتصادر على قلبى فلم أمنحه لأحد فقد كنت أخاف الحب.

حين فقدت أنت حريتك.. استُلبت منى حريتى، فصار الخوف فى قلبى امتدادًا للخوف فى قلبك؛ لذا سأخوض حربى ضد الخوف لك ولى. كنتِ تخافين أختك الكبرى لم تستطيعى الرفض يوم فرضت عليك واقعة محاولة ختانى، كنتِ تخشينها فوافقت على ما قررته لابنتك ووقفت متفرجة فى سيرك الأخت الكبرى

وهى تغتال براءة ابنتك ووقع عليكِ اللوم من والدى، لم تدافعى عن نفسك. لمحت سعادتك عندما أقسم والدى إذا تكرر هذا سوف تحرمين عليه كزوجة وكأنها كانت الكلمات التى انتشلتك وانتشلتنى معك من مصير الذبيح.

سأحررك يوم أحرر نفسى.. قد لا أستطيع بعد أن رحلتِ أن أعرف ما فى قلبك الآن؛ لكنى ما زلت قادرة على رؤية ابتسامتك الواهنة الموافقة على رأى أقوله حتى لو تلاشى وجودك من وجودى منذ انتقلت لوجود آخر حيث تستقر روحك.

أعدك أنى سأحارب معركتنا وسأنتصر لك ولى، وستمارسين تجربة جديدة بروح جديدة أكثر تحررًا يوم أمارس تجربتى الجديدة بروحى الجديدة الأكثر تحررًا. أوقن من ذلك وأعرفه من ابتسامة وجهك المنير المستريح بعد أزمنة التعب والخوف. عودت نفسى التعايش مع الخوف، الحروب أكسبتنا التعايش مع الخوف. عندما تزوجت وأنا ما زلت طالبة بالجامعة كنت أظننى أهرب من الخوف لمنطقة أكثر أمانا عالم جديد يحتوى اضطرابى وخوفى وخاصة أننى أدركت أن الحبل السرى الذى يربط بينى وبين خالى قد انقطع بزواجى؛ لأن الخال رفض رفضا باتا زواجى من هذه الشخصية، وأمام اصرار أبى وجرحه لمشاعر الخال بمواجهته بحقيقة كانت غائبة عمرا عنى وعن خالى وهى أننى لست ابنته

وليس هو صاحب القرار فى زواجى، كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها قلبه الرقيق الذى مرض فجأة وقاطع الحياة مكتفيا بالاطمئنان علىَّ من أمى، ولم يكن حالى أفضل منه. كنت حزينة لفراقه لكن زواجى كان بالنسبة لى فرصة للهروب من عالم لم أحبه يوما وهو العيش مع أبى وأمى وبعيدا عن خالى الذى كان يحيا بعد الهجرة الثانية لمدينتى والتى غادرناها فى تلك المرة بأوامر من الحاكم العسكرى. انتقل خالى للإسكندرية حيث مقر عمله وانتقل والدى للمنصورة حيث عمله ومدارسنا أنا وإخوتى وانتقلت جدتى وخالتى إلى راس البر، أما زوجة خالى أمى التى ربتنى فانتقلت لدمياط مع أهلها، ولأول مرة أواجه العيش معهم وحدى دون حماية. لم تكن مشاعرى تجاههم واضحة كنت أحس أننى هُزمت، نعم هزمتنى الحرب فرَّقت بينى وبين من أحب وأيضا فصلتنى عن مدينتى وذكرياتى مكانى الطبيعى وأهلى الحقيقيين. واستقر الخوف من المجهول بداخى كيف أواجه هذه الأشباح وحدى هو هناك وأنا هنا لا حول ولا قوة! لى وبدأت أتعايش مع الواقع المفروض وقتها فى مدينة تختلف تماما فى عاداتها وتقاليدها ولهجتها والتخلف بها من وجهة نظرى وقتها، حاولت التأقلم مع وضعنا الجديد أواجه عالما ماديا ومعنويا وحدى وعلىَّ التأقلم، أوهمت الجميع أنى بخير وكان ذلك خارج حدود

الوعى وبدأت الدراسة فى مدينة جديدة ومدرسة جديدة وزميلات جدد ولم يكن بالأمر اليسير فقد أحسست بالاضطهاد من أول وهلة وظهرت أعراضه جلية واضحة من الطالبات؛ فقد كان زينا كمهجَّرات يختلف فى الشكل واللون عن زى طالبات المدرسة، فكان المدرسين ينادون علينا بمقولة يا مهاجرة كانت كلمة قاسية جدا خاصة مع ما نلاقيه من نظرات الشك من مدرسينا وزملائنا وكان الحل أن نرتدى وجها غير وجهنا لنواجه أنا وزميلاتى هذا الاضطهاد غير المبرر من وجهة نظرنا، لجأنا للتمرد على مدرسينا ولهجة تحد لزميلاتنا. كان علينا أن نواجه بشراسة وعنف حتى نستطيع المقاومة، مقاومة أعداء بدون مبرر للعداوة كان لزاما علينا فى معركتنا التى خلقت لنا أن نتفوق دراسيا ويكون التفوق هو الموازى للشراسة، فأمام إدارة المدرسة وأيضا أولياء أمورنا لا يمكن أن يجتمع لطالبة المشاغبة والتفوق فى آن واحد وكانت كلما تقدم أحد بشكوى ضدنا يكذبها تفوقنا الدراسى فلا تخضع الشكوى للتصديق وإنما يتم إحالتها للغيرة من بنات اضطرتهم ظروف الحرب للاغتراب عن بلدهن ومدارسهن وبالرغم من ذلك تفوقن دراسيا.. فاضطرت الطالبات للتسليم ومحاولة مصادقتنا وكانت تلك أول حرب ننتصر فيها لأنفسنا، كان علينا مواجهة واقع شرس بشراسة أكبر منه فلقد هزمتنا الحرب لكننا

قهرنا الموت وتغلبنا عليه فما بال أشخاص يضمرون الشر سوف نتخلص منهم بشرورهم وكان التفوق هو التحدى الذى كنا نعاقب عليه.

يولى الوجود من حولى.. يأخذ بخناقى ويقودنى للضلال.. يرمى بى للهلاك.. يتكاثر العشاق الموتى وأنا عاجزة عن البكاء، يسكننى مخلوق خاوٍ من المعنى؛ كسلة مملوءة بكلمات بلا دلالة، فأدخل يدى فى صدرى لأنزع قلبى وأتحاور معه، فأكتشف أن لا قلب لى، وأن لا أرض للحرية، فألتزم الصمت بعد اغتصاب الروح، وتوالى الهزائم، وحين يأتى الليل... وقت الحصار، أتسمر مكانى، ويلفنى الصمت، وتسكن روحى أمواج تطفو معها جثث، تأتينى كل ليلة بالكراهية معنونة باسم الحب.

سئمت الوحش الذى خلقته لينهشنى، ويتركنى كل ليلة فارغة من كل محتوى. غاصت أقدام الموتى، وتساقط الليل قطعًا، وتداخلت الأيام والناس، وها نحن التقينا ولم تمتد الأيدى.. لم تنسج الرغبة فينا شيئًا يا من ليس له اسم إلا تلك الأشباح الليلية والأقنعة والجدران.. تولد فى كل مساء طفلاً مجهولاً، لتصبح وجهًا مقتولاً، أو نعشًا محمولاً، تسألنى: من أنتِ؟ وأنت قاتلى.. كأنك لم تقتلنى وكأنى لم أقتلك فىّ.. بداخلى.. فى منتصف ليل ممتد عبر صحراء حياتنا.

اخلع هذا الجلد الميت... لا هذا وجهك ولا تلك شفتاك الكاذبتان، والخنجر المختبئ فى طيات جسدك يلمع فى عينيك!

لم عدت؟

كى تقتلنى؟

اذهب بعيدًا فى الغياب، فالقاتل مقتول مثلى؛ بعدما ألبستنى اليأس قناعًا، وتوطن قلبى الحزن، وعششت بالصدر جهامة، أحاول أن ألملم وجهى قبل أن تدهسه الأقدام، ويصبح كومة رماد بعدما سقط حلمى وأنا غافية فوق سطح كهف الخوف.

عندما تزوجت ظننت أننى أتحرر من الخوف أدخل عالما جديدا يحتوينى ويعوض فقدى للحبيب لكنى وجدت وحشا فى صورة إنسان كنت أراه يوميا مع أصدقائه وأهله ومعارفه غاية فى البهجة والمرح، وعندما يخلو معى أواجه كابوسا مجسدا. كان يسفه كلامى وتصرفاتى، يتندر علىّ أكثر من مرة أحاول برغم صغر سنى التواصل معه بلا جدوى، أيام قليلة أحس فيها بالأمان ثم ينقلب لوحش آدمى يكيل السباب واللعنات على رأسى وكأنه ينتقم من آخر فى شخصى. كان دافعى للاستمرار فى هذه العلاقة غير المتوازنة وغير المتكافئة أن أكمل دراستى الجامعية كانت كلمات خالى وأمى تتردد فى أذنى: لن يحررك سوى شهادتك التى بها تحصلين على دخل يحررك من سطوة الزوج

والأب وأى شخص فى الحياة. كنت أعلم جيدا أننى لو طلبت من أبى أن يطلقنى منه سوف يكون مصيرى مصير بنات عمى اللاتى مررن بتجربة الطلاق: أن أظل حبيسة بيت أبى حتى يأتى زوج آخر يأخذنى لبيته لأن أبى كان يؤمن بفكرة أن البنت عورة وطبّقها على بنات إخوته وصار كل أملى فى الحياة أن أنهى دراستى الجامعية التى وافق عليها أبى أمام تعنت أمى، بإيعاز من الخال فى مقابل زواجى ممن اختاره هو وإخوتى كان الثمن الذى دفعته أنا وأمى وخالى هو أن أكمل تعليمى الجامعى! لم أكن أعلم قيمه ذلك حتى عشت التجربة ووجدتنى ذليلة لكل طلب حتى لو صغيرا، أطلبه وكأنى أتسول منه ولست زوجته. كانت أمى بدورها تمدنى بما أحتاجه بدعم الخال المادى مستعينة على ذلك بمساعدة زوجة شقيقى والتى كانت صديقتى المقربة فكانت أمى ترسلها من مدينتنا التى أصبحت بعد العودة من الهجرة مدينة حرة، ترسلها محملة بما أحتاج من ملابس وأغذية ومساعدات عينية ومادية لأواجه متطلبات الحياة والدراسة، وكنت أخفى عن زوجى أن أمى ترسل مبالغ من المال حتى لا يأخذها ويحرمنى من شراء كتب الجامعة أو دفع مصروفاتها الدراسية. ولم تكن زوجة الأخ تكتفى بما تقوم به من إحضار الأشياء أسبوعيا لكن بحب حقيقى كانت تعاون فى

تنظيف البيت وأيضا تحضير مأكولات ليوم أو يومين حتى تريحنى من عناء الدخول للمطبخ وتتيح فرصة أمامى للدراسة بالجامعة والاستذكار، أما هو فلم يعترض على ما تقوم به أمى فقد أصبح عادة أن ينتظر ما تحمله زوجة أخى حتى يريح نفسه من عناء الصرف، ووصلت الدرجة التى كان يحدد لها الأصناف التى يريدها.

استقر الحال واستمرت المساعدات وازدادت فأحس هو بالخطر وأن اللعبة التى حصل عليها ممكن أن تذهب بعيدا عنه خاصة وأننى اصبحت فى السنة النهائية لدراستى الجامعية فأخذ يضايق زوجة أخى ويحاصرها بتصرفات صبيانية وهى الغالية عندى والأثيرة عند أمى وكان يعلم جيدا أنها لن تتحمل كثيرا حتى ضاق بها يوما وصرحت لى أنها لن تأتى لى بعد ذلك بسبب تصرفاته الطائشة المريضة. قدرت ما تحمّلته من أجلى ورجوتها ألا تخبر أحدا فأنا لم يعد أمامى إلا شهور قليلة للذهاب للحرية حريتى الاقتصادية بعد حصولى على الليسانس. وانقطعت زوجة أخى عن الحضور الأسبوعى وبدا هو مستغربا ثم مصرحا وبوقاحة عن انقطاع الدعم الذى كان يأتى قلت له أن زوجة أخى حامل بشهرها الأول ولن تسطيع المجىء وعليه هو أن يذهب لأمى ليأتى بالأشياء التى كانت ترسلها. وقد كان

خبر حمل زوجة أخى هو العذر الذى اتفقنا عليه أنا وهى لتخبر أمى به، ولأن أمى كانت تحبها وتخاف عليها فلن ترسلها فى رحلتها الأسبوعية خوفا عليها وجنينها. وخدمنا القدر كثيرا حيث أن زوجة أخى فعلا اكتشفت أنها حامل وتأكد خبر حملها وظل السر بيننا حتى الآن. أما هو فلم يذهب لإحضار المعونة الأسبوعية وتعذر على أمى الحضور لأنها دخلت فى عملية جراحية وكنت قد أخبرتها آنذاك وأنا أزورها بالمشفى أنه يقوم بواجبه من الصرف وأننى لم أعد بحاجة لشىء، ووعدتها أننى إذا احتجت لشىء فسأرسل لها فورا. وكان أن احتجت لكتاب أخير لم أحصل على ثمنه من أمى، فرفض وادعى أنه لا يملك المبلغ الذى كان جنيهين، وكانت تلك فرصته فى تعطيلى عن إنجاز امتحان تلك المادة، فأحضرت الكتاب من زميلة كى أنقله وفرصتى أثناء نقله أن أذاكره. فكان يتعمّد تعطيلى، خاصة أن زميلتى أعارتنى الكتاب لساعات فقط، كثرت مطالبه وتعمد الشجار حتى تمر المهلة الممنوحة لى بلا فائدة وتحقق له ما أراد ودخلت الامتحان وأنا مريضة بالقهر وبالحمى، وحاول زملائى مساعدتى لكن قدرتى على الكتابة كانت معدومة. وعدت للبيت وأنا أحنق عليه وأرى نظرات الفرح والشماتة بادية على وجهه الشيطانى آنذاك ولفرط حزنى وإدراكى أننى فقدت تقديرى

الذى كان سيتيح لى التعيين فى الجامعة أو التعيين مع دفعتى الذى سيتأخر عاما. كان القدر رحيما بى إذ جاء أبى لزيارتى بعد علمه بمرضى، وشرحت له أننى سوف أتخلف عن التعيين سنة بسبب المادة التى سوف أمتحنها دورا ثانيا، فاقترح والدى الذى كان قد أحيل على المعاش وعمل مديرا لمجموعة مدارس خاصة على زوجى أن أتعاقد خلال السنة بانتظار التعيين فى إحدى المدارس التى يديرها بمدينتنا وبأجر يعادل مرتين ما سوف أتقاضاه من الحكومة ويا لهول المفاجأة فقد وافق الزوج ولا أعلم حتى سبب موافقته ولم أقف عند مناقشة الأسباب؛ كل ما كان يشغلنى ويجعل قلبى يتراقص أننى سأعود مرة أخرى لمدينتى وأرى خالى يوميا وأستعيد ذكرياتى التى أجبرتنى الهجرة على تركها وأكمل عليها زواجى بعيدا عنها. وعدت للمدينة، الشوارع والبشر، عدت للبحر الذى افتقدته، عدت لطفولتى وأصدقائى، وهللت داخلى مرحبا بالعودة. لم يكن يقطع هذه الحالة سوى سفرى حيث زوجى يومى الخميس والجمعة وهما ما اتفق والدى عليهما معه أن أعود يومين أرتب فيهما الحياة ثم أرجع لعملى ومدينتى وأحبابى صبيحة السبت من كل أسبوع. كم كانت رحلة العودة شاقة مؤلمة وكانت أيسرها وأنا أتجه عائدة شمالا لمدينتى وأحبابى ورجلى الذى أحبنى وربانى، والتقينا مرة

أخرى بالمدينة التى أحببناها وتجولنا بشوارعها ونحفظها وتحفظنا عن ظهر قلب. بدأتْ تتغير؛ ترتدى ثوبا غير ثوبها وتتلون بأصباغ صناعية غير ألوانها التى اعتدنا، وتستقبل زائرين وتودع زائرين لا يبقى منهم على طرقاتها سوى بقاياهم ونفاياتهم. وعلى قدر سعادتى بوجودى بمحيطه كان إحساس الاغتراب يكبر بداخله مع انتشار الغرباء بالمدينة مطيحين بكل قيمها وجمالها وتسيد القبح فى مدينتنا فقد داست أقدام المنفتحين على كل فضائل المدينة وباتت تحتضن الغرباء وتلفظ أبناءها وتاريخها بعيدا، فانزوى الحبيب بعيدا يتأملها من شرفته ويرصد التغيرات السلوكية للبشر التى تحولت لسلوكيات استهلاكية، سلعة قابلة للبيع والشراء، لم يكن ينقذه من تلك الحالة سوى رحلته اليومية فى القنال للذهاب والعودة لعمله، تلك الرحلة التى كان يحمل لها فى كيس مخصص الخبز والبسكويت وبقايا الأكل من لحوم وأسماك لأصدقائه؛ زوجان من الدولفين فى مياه القناة ينتظران قدومه ويتبعان اللنش الذى يركبه حتى وصوله لعمله وهو طوال الرحلة يخرج الطعام من الكيس ويقذف لهما به ويضحك وهما يتقافزان فى الهواء للحصول عليه، وأيضا يخرج الخبز ويرميه فتأتى أسراب النورس لتلتقطه وتحط على اللنش فى منظر بديع يطهر نفسه ويعيد لها البسمة.. ثم يعود

ليجلس فى بيته يتأمل حركة الغرباء فى الشوارع. كنت أتأثر به وله، أحسست أن المدينة لم تعد لنا إلا قليلا عندما كنا نتجول على شاطئ البحر ونجلس بعيدا عن السوق الذى غزا مدينتنا نتحدث عن الذكريات.. دائما كان الماضى هو الحاضر معنا، رفض وعْينا الحاضر وصادر على المستقبل أو احتمال أننا رفضنا ما سيسلمنا واقعنا له! كنت أراه ينسحب رافضا كل ما حوله من تغيرات أثرت بشكل كبير على معظم المحيطين به ما عدا دائرته الصغيرة زوجته وأنا وجدتى وأمى وأبى أما الجيران والمعارف الأصدقاء والأقارب فانشغل كل منهم بمحاولة اللحاق بقاطرة الانفتاح، وكم كان حكيما عندما التمس لهم الأعذار مبررا ذلك بأنهم عانوا الفقر على مدار سنوات الهجرة تحملوا القهر باعوا ما يمتلكونه كى يستطيعوا العيش طوال أعوام بعيدا عن عملهم وبيوتهم، تحملوا النوم فى معسكرات للإيواء فى المدن التى هجِّروا إليها وها هم عادوا مع الانفتاح فلا بد من الانتقام من الفقر حتى لو على حساب كرامتهم فلقد أهدرت كرامتهم عندما ناموا أربع أسر فى حجرة واحدة لا تفصلهم عن بعضهم سوى ملاءات تحدد لكل أسرة مربعها.. كنت أوافقه أحيانا وأحيانا أخرى عقلى يرفض بدون تصريح.

فى ذلك العام كونت صداقات جديدة مع زميلات العمل وقضيت أوقاتا كثيرة فى التجول والحكى مع زوجة شقيقى التى كانت تقيم مع أبوى فى نفس الشقة لأن زوجها كان بالخدمة العسكرية ومكان تجنيده بعيدا يفرض عليه الحضور أياما قليلة كل شهرين فاستمتعت بوجودى إلى جوار خالى والقرب من صديقتى وممارسة العمل وإحساسى لأول مرة أننى أحصل على راتب يتيح لى حرية الحركة وشراء ما أريده بإرادتى الحرة واختيارى. مرت الأيام والشهور قطعها طبعا حضورى امتحان المادة الدور الثانى وسقط واقع وجودى بعيدا عن بورسعيد من الذاكرة حتى أفقت ذات صباح على صوت أبى يهنئنى فيه بأن خطاب تعيينى وصل وأننى عينت فى المنصورة لأننى خريجة جامعتها وأيضا يخبرنى بأن عملى معه كان مؤقتا وكانت فترة للتدريب. وعلى قدر سعادتى بأننى اليوم وفقط حصلت على حريتى أقصد وظيفتى على قدر حزنى لعودتى مرة أخرى للسجن الذى حبست فيه من قبل، سجن روحى المنطلقة. وكان حزنى الأكبر مغادرتى لخالى الذى اعتدت رؤيته يوميا من جديد، كنت أبكى بداخلى وأنا أجمع أشيائى بعد أن أخليت طرفى من العمل وانا أستعد للمغادرة.. مغادرة المدينة التى لم تعد مدينتى لكن

أحبابى بها والذهاب لعالم مقيت بالنسبة لى وكان المجهول والخوف منه هما المسيطران على نفسى.

قطعت الرحلة إلى بيت زوجى وكلى أمل أن يكون ما أنا فيه كابوس أفيق منه وأجدنى مع أحبابى، لكننى وجدته أمامى يستقبلنى مهللا ومرحبا فقد عدت إلى البيت لأنيره بتعبيره! ما هى إلا أيام قليلة حتى عاد لسيرته الأولى من ممارسة الاضطهاد وتسخيف أى رأى لى حتى لو فى مجال عملى، كنت أستغرب جدا من معاملته لزميلاتى بالعمل إذا جاءت إحداهن لزيارتى تأتى فى اليوم التالى للعمل لتهلل كيف هو زوجى ومقدار السعادة التى أراها مع زوج مثله! كان يجيد ذلك إلا مع المقربين منه، كان يتجاسر ويتعامل بوجهه الحقيقى، كنت أبذل الجهد النفسى حتى تستمر شبه الحياة لكنه وفى لحظة جنون دمرنى ودمر الحياة والبيت. ناتج الإحباطات التى انتابته على مستوى العمل والأصدقاء فلم يستطع تفريغ شحنة الغضب غير فى تعامله بوحشية، رأيت وجهه الحقيقى حينما كاد أن يقتلنى.. عند هذه اللحظة توقف الزمن انتهى ما قبله وبدأ العد الجديد لما بعده، كل ما كان يشغل بالى هو أولادى لن أتركهم فى يد الوحش، سيمارس عليهم وحشيته وهم لا ذنب لهم إلا أنهم جاءوا للحياة أبناء لحظة بغض على الأقل من ناحيتى، فكان لا

بد من التفاوض لتركهم لى وبعيدا عن إدخالهم فى المعركة التى لم أسع لها. عندما دخلنا دائرة المفاوضات كنت أعلم أنه لن يعطينى حريتى أو أولادى إلا بمقابل وكنت مستعدة للخسارة، فأنا تعودت الخسارة. لكن الخسارة تلك المرة مكسب حريتى وأولادى، وانتهت المفاوضات وترك الأولاد فى رعايتى رعاية كاملة وأقررت أننى مسئولة عن كل شىء، وحررته من الصرف على أولاده، أما الحصول على حريتى الكاملة وإعطائى قسيمة الطلاق فقد رفض إلا فى الوقت الذى يحدده هو، وكان موفقا فى اختيار التوقيت. فلقد توفى أبى بعد عامين من انتقالى بالقرب منه وأخذنى الحزن والوجع عن التفكير فى ذاتى وفرغت وقتى كله لأبنائى وأمى وعملى وكان علىّ تعويض أمى عن غياب ورحيل زوجها وترتيب حياتها كما كان أبى يفعل، واستطعت ولو قليلا أن أبعدها عن مناطق الحزن محاولة خلق مساحات للبهجة، وكان أولادى الصغار داعما قويا فى ذلك. وتقاربنا أكثر أنا وأمى وكانت الأمنية الوحيدة لها أن ترانى مستقرة بعد تعب لسنوات أعمل ليل نهار وأستجمع الباقى من يقظتى لأقضيه معها ومع أبنائى ثم لحقت أمى بأبى بعد عام ونصف، رحلت غير مطمئنة علىّ وكان هذا التوقيت الذى اختاره زوجى ليعطينى صك عتقى. جاء ليعزينى فى وفاة أمى كان يبتسم والشماتة تطل من عينيه

ثم صرح بها الآن أصبحت وحيدة لا خال ولا أب ولا جدة ولا أم اليوم تأتين معى للمأذون لتحصلى على ورقتك أو لن تحصلى عليها أبدا قلت له سآتى اليوم معك فاستطرد لكنك ستتحملين كل الماديات المترتبة على الموضوع المواصلات والمأذون والشهود، وافقت دون تردد حتى لو دفعت عمرى فلن أبخل. وبذلك حصلت على حريتى كان الثمن أن يموت أبى وأمى كى يحررنى، وكان القدر يلعب معى لعبته دائما يأخذ واحدة ليعطينى مقابلها واحدة. وتحررت، انعتقت بعيدا عن منطقة آلمتنى لسنوات طويلة كنت حرة ومقيدة فى نفس الوقت. فى تلك الليلة عدت بعد أن حصلت على حريتى أخيرا وتساءلت هل أنا حرة فعلاً؟ فلقد تحملت آلامى واعتدت عليها، هل ستفارقنى الآلام أم أنها قيد بعمرى أمشى وهى تمشى على أحلامى، تغتالها الواحد تلو الآخر. مررت ليلتها أمام مقابر العائلة التى تقع بالقرب من شاطئ البحر فى مدينتى، مررت على الأحباب أعلمهم بأنه أخيرا حصلت على حريتى.

كان الفجر على وشك الظهور فأحسست لحظتها أنه فجر جديد يلوح من بعيد سيغير حياتى ومستقبلى، مررت على مدينتى فى طريق عودتى إلى البلدة التى أسكن فيها وقد تركت أبنائى وحدهم فتذكرت أبنائى ومسئوليتى تجاههم، وأننى فى

سبيل حصولى على حريتى نسيت واجباتى كأم بإعداد طعامهم اليوم واستذكار دروسهم لكن الأهم أنى نسيت أن أطمئنهم علىّ. ابتسمت بينى وبين نفسى فأنا قد زرعت داخلهم إحساس المسئولية وهم لن يخذلونى، وتذكرت أن اليوم الذى منحت فيه الحرية هو يوم عيد ميلاد ابنى فوقفت فى طريق عودتى عند أول حلوانى قابلنى ولحسن حظى كان المحل مفتوحا حيث إنه على طريق السفر، وطلبت من البائع تورتة ولحسن حظى أو حظ ابنى كانت العربة التى تحمل لهم الحلوى من دمياط واقفة أمام المحل فسأل البائع السائق فأجابه أن معه تورتات فأحضر لى البائع التورتة ووضعها فى علبة أنيقة وهو يبتسم فابتسمت له وأنا أعلم معنى ابتسامته التى كان يتساءل: "حد يشترى تورتة فى الساعة دى من اليوم"! كانت الساعة قد قاربت الخامسة صباحا وكنت قد عزمت أن أحتفل بعيد ميلاد ابنى وطلاقى معا. وقبل ذهاب أولادى لمدارسهم وصلت المدينة التى أقطن بها وأحضرت اللبن كى يكون صباحنا حلوى ولبنا وصعدت إلى شقتى وما إن أدرت مفتاح شقتى حتى وجدت أبنائى وقد التفوا حولى وهم يجهشون بالبكاء، وكان البكاء خليطا من فرحتهم بعودتى وقلقهم وخوفهم علىّ، وعندما استرحت وبدأنا الاحتفال بابنى فاجأتهم بخبر طلاقى، قاموا مهللين من الفرحة

يحتضنونى وينهالون علىّ بالقبلات. أدركت وقتها دعم أبنائى وأننى كنت على الطريق الصحيح وأن الحياة التى أخذت منى أعز الناس بالموت عوضتنى أعز الناس بالحياة، وقد كانت المدينة التى اتخذتها سكنا ومنفى ترفض أن تكون منفاى ووجدت بها فرصا للعمل وقبولى كمطلقة تحيا وحيدة بأبنائها كانوا عكس كل توقعاتى وأعطت لى أكثر مما كنت أتوقعه: فرص العمل الذى يدر دخلا محترما وسكنا أكثر احتراما، وبقدر معاناة الأيام والشهور الأولى فى هذه المدينة من ظروف الحياة إلا أنها استوعبت أحلامى وأبنائى، فلقد وضعت اهتمامى بعملى فترقيت بسرعة وأصبحت مديرة لأكبر مدارس المدينة وأيضا توليت منصبا قياديا بالمحافظة حقق لى استقرارا أدبيا خاصة بعد تجربة الزلزال التى بحكم خبرتى المتراكمة بسبب هجراتنا ونحن أطفال وما قدمته من مساعدات فى الوقوف بجانب أسر أضيرت نفسيا وماديا بعد انهيار منازلهم. كان الزلزال واقعا غريبا علينا أثر فى نفسى لدرجة أحسست معها أنه زلزل حياتى وكيانى كله، وبدأت أستوعب واقعى ومسئولياتى وبرغم خوفى الدفين من المجهول الذى يتربص بى وبأبنائى فقد كنت أنام مفتوحة العينين خوفا من أن يداهمنا ونحن نيام، وعندما أطمئن على نزول أولادى من البناية أستسلم للنوم من شدة الخوف الذى أخشى أن أبديه أمام

أولادى، وبدأت الحياة تتغير ملامحها وتنحو منحى جديدا وتتفتح آفاق جديدة للعمل والعلاقات تحمل معها معنى جديدا للوجود لا يقطعه سوى الإحساس الدفين بالخوف المستقر بنفسى.

تفتحت عينى فى بورسعيد مدينتى وأمى على الخوف الذى رافقنى بقية عمرى دون أن يكون له علاقة بالجن أو العفاريت لكنها الحروب، فارتبط الصوت المرتفع، والنار، والشتاء، والسحب، والظلمة... بالخوف من المجهول.

كانت خالتى أول خوف أصطدم به. كانت حادة الملامح.. عصبية.. تثير نظراتها الخوف فى من ينظر إليها.. كانت تغتال لحظات الفرح التى أعيشها فى أحضان خالى.. فتنتزعنى من بين ذراعيه بحجة حاجتى للنوم، وتضعنى فوق حجرها، وتجبرنى على إغماض عينى، فيسقط الظلام على روحى حين تغطينى بطرحتها السوداء الحريرية.

أنا أكره الظلام وأخافه خوف الموت، ويزداد رعبى حين تبدأ فى سرد مخاوف قبل النوم الليلية حين تسترسل فى متعتها بسرد حكايات أمنا الغولة، وأبو رجل مسلوخة، فيمتلئ وجدانى بشياطين الخوف والقهر، وأسقط فى بئر النوم العميق وأنا أصرخ بلا صوت فى كوابيسى الخرساء التى أهبط فيها طوال نومى فى هوة بلا قاع.

كانت تستمتع بالوقيعة بين أخيها وزوجته.. بينه وبين أمه.. بينه وبين خالتى الأخرى.. بين جدتى وأمى.

حرمتنى من متعة تأتى مرة واحدة فى العام يوم كنت أستعد للسفر فى رحلتى السنوية مع خالى إلى القاهرة، حين وشت لأبى عن رحلة العام السابق يوم تركنى خالى مع أقاربه فى عربة قطار غير التى ركب فيها، فغضب أبى غضبته العارمة التى جعلتها تشع بالفرح، وعيونها بنشوة الإيذاء لأنها عرفت وتأكدت أن أبى سيمنع خالى من اصطحابى.

وقعت فى جوف المرض حين عرفت، واشتعل جسدى بلهيب الحمى، فهربت من الوجود فى غيبوبة استمرت أسبوعين، ولم أفق منها إلا على يد خالى الحنون فوق جبهتى، ودموعه الساخنة تتساقط فوق وجهى، فتعلقت برقبته ليضمنى وهو يشهق بالبكاء.

عشت ضحية كونى فتاة بين كوكبة من الفتية الذين استضعفونى على مدى عمرى، كنت لعبتهم الأثيرة حين يريدون اللعب، وأختهم الحبيبة حين يبحثون عن المشاعر، وجنونهم الذى ينتابهم حين يريدون إثبات قوتهم بإثبات ضعفى.

ذهبت الأسرة لتأدية واجب عزاء حيث لا يجب اصطحاب الأطفال، وتركونى فى حماية إخوتى الذكور فى البيت الذين ملوا من الصمت وجلوسى وحدى فى غرفتى، فتفتق شيطانهم عن فكرة جهنمية يتسلون بها وبى.

نزع كبيرهم الذى علمهم الرعب قابس كهرباء البيت حتى حل الظلام بالبيت كله.. الظلام خصيمى.. لا أحبه وأخافه ففيه كل المخاوف والجنون.

جاءوا بملاءة أمى السوداء ووضعوها فوق أحدهم بعدما وضعوا غطاء آنية الطبخ النحاسية فوق رأسه، فصنعوا عفريتًا من الجن أدخلوه علىّ فى الغرفة المظلمة وهم يتناوبون الصراخ بأصوات قادمة من الجحيم، وأنا أصرخ مرعوبة فقد تجسدت هواجسى خوفًا واقعًا زلزل كيانى، وكاد أن يوقف خفقان قلبى الذى تسارعت دقاته، وأحسست به فى حلقى يكاد يغادر جسدى حتى تحشرج صوتى وعجز عن الخروج، وسقطت فى غيبوبة لم أُفق منها إلا وأبى يرطب وجهى بالماء.

كان قد عاد مبكرًا من العزاء، ولاحظ أن شقتنا مظلمة دون بقية شقق البناية، ففتح الباب بمفتاحه، وتوجه للوحة الكهرباء، وعرف بخبرته أن القابس منزوع، وتأكد من أن شيئًا غير طبيعى يحدث من ضجة الأصوات التى يصطنعها إخوتى، فوضع القابس، وتوجه مباشرة للغرفة لتواجهه مهزلة الرعب التى يمارسها إخوتى على، الذين ما إن رأوه حتى تسمروا فى أماكنهم، فتركهم حيث هم، وعمل على إفاقتى.

التفت إليهم فرأوا فى عينيه نظرة يعرفونها جيدًا، وعلموا مصيرهم حين رأوه يحكم إغلاق باب الغرفة، ويخلع حزامه من وسطه، وينهال به عليهم ضربًا، وهم يصرخون من شدة الألم وقسوة العقاب.

لاحظت أن أبى كان دائم الخوف مما يحيط به وبأسرته حتى لو كان ذلك نقطة ماء تتسرب من الحنفية خشية أن تهدد سلامة بناء البيت فينهار.

كان يتركنا وحدنا ويمضى لبيت أبيه حيث ينام آمنًا حتى يأتى السباك ويصلح حنفية الماء التى تمنع انهيار البيت.

كنا صغارًا نضحك من خوفه الذى ترك إخوتى كلهم ليسكن روحى، ويحفر لنفسه أنفاقًا بداخلى.. أخذت عن أمى الصلابة، وأورثنى أبى الخوف لأعيش خائفة صلبة فى مواجهة الحياة.

كان أبى رغم تحرره البادى شخصًا مميزًا بشرقيته الصارمة داخل البيت، وانفتاحه الثقافى والسلوكى خارجه، والتزامه القيمى الصارم فى العمل. تسبب التزامه الأخلاقى له فى عداوات بالعمل وصلت حد تهديده بالقتل فى أكثر من مناسبة، حارب فيها الرشوة والفساد، فتعمق خوفى عليه.

اهتزت الأرض تحت قدمى وأنا عائدة من السوق حيث كلفتنى أمى بشراء بعض مستلزمات البيت.. كنت طفلة مسكونة بالخوف،

فركضت للبيت أحتمى به وبأمى التى أخذت منى الحاجيات، وقرأت الرعب فى وجهى، فربتت على ظهرى، وطلبت منى أن أذهب معها ومع بقية الأسرة للمخبأ فقد كان الاهتزاز نتيجة قصف العدو على مدينتى.. كانت غارة.

كنت صغيرة عندما حملونى وركضوا بين الحوائط وحطام البيوت المحترقة وجثث الموتى الملقاة فى الشوارع.. حدثتنى أمى عن ذلك كثيرًا حتى اختبأ المشهد فى خلفية ذاكرتى ليظهر من حين لآخر فى البعيد.

جلسنا محتمين بالحوائط الخرسانية كما علمنا أبى، وتبعثر إخوتى فى المكان، وجلس الرجال فى جانب والنساء فى آخر يتبادلون الحديث حين أضاءت السماء بنيران طلقات الاستكشاف التى أحالت الليل نهارًا، واخترق الضوء المكان، فصرخ الصبية من الفرح الذى اغتالته أصوات الانفجار فى ثوان، وأعاد احتراق الأبنية للمدينة بعض النور.

مر الوقت ثقيلاً حتى انطلقت صفارات الأمان معلنة انتهاء الغارة.. لملمنا أنفسنا، وصعدنا لبيتنا، ووقفت فى النافذة أشهد احتراق المدينة التى غطتها سحابة سوداء أشد ظلمة من ليلها البهيم، فانتبه الحزن فى قلبى وأيقظ الخوف.

نمت تطاردنى النيران، ودوى المدافع، وسحابات سود يتمددن بلا حياء فى كوابيسى حتى أشرق صباح يوم جديد، فذهبت لمدرستى... هذه المدرسة التى تواجه ساحل البحر.

صعدت مع زميلاتى لفصلى فى الدور الرابع، ورأينا فجأة طائرات تحلق فوق رءوسنا عن قرب، فتجمد الدم فى عروقنا، وتسمرت عيوننا على الطائرات الإسرائيلية تنتشل جثث جنود العدو الذين قضوا نحبهم ليلة أمس حين أغارت زوارق البحرية المصرية على المدمرة الإسرائيلية إيلات، وأغرقتها.

دوت صفارات الإنذار صارخة، فتدافعنا للخروج من الفصل فى حصة معلم الإنجليزية القاسى الذى وقف فى مدخل الفصل ينظم خروجنا، فأسقطناه ودهسناه بأرجلنا الصغيرة، راكضين مهرولين للدور الأرضى، مستجيبين لتوجيهات إدارة المدرسة باستخدامه كملجأ.

هدأنا واستقر أمرنا حتى فوجئنا بمعلمنا يدخل علينا متفجرًا بالغضب، تعلو ثيابه بصمات أقدامنا، وحين انطلقت ضحكاتنا لم يتوانَ عن التعبير عن انفعاله بصفنا صفًا طويلاً، وأمرنا بمد أيدينا أمامنا، وفتح أكفنا لتلقى العقاب.

اختلط منظر الجثث مع غضب المعلم الهائج، والعقوبة البدنية المنتظرة، فحضر خوف الألم والموت فى روحى، وتجسد الرعب

معلمًا، فشرعت فى البكاء. وتجسد الرعب أكثر عندما علمنا بعد هذه الواقعة أن الأوامر صدرت من الحاكم العسكرى للمدينة بتهجير الأهالى وهذه المرة ليس تهجيرا عشوائيا ولكن تهجير جغرافى. كنت أضع يدى على قلبى من الخوف واستشعرت مجهولا قد تحقق فيما بعد وهو تشتت الأسرة وتوزيعها جغرافيا الخال فى الإسكندرية وأبى المنصورة وجدتى رأس البر وفجأة وجدت عائلتى قد تفرقت فى ربوع مصر وبأوامر لا بد من تنفيذها! وكان يوم الرحيل والمدينة والأحبة والذكريات تتلاشى مع حركة السيارات على الأسفلت، كان يوما غريبا كل ما أذكره أن النساء فى مدينتى كُنّ يتشحن بالسواد وهن يبكين تاركات بيوتهن وراءهن وأنا تاركة أعز الناس ومعه كل ذكرياتى.

سردت له مرارًا أسباب خوفى، فتندر بها للأصدقاء والمعارف، وصرت أخزى من نفسى أمامهم.

قلت له ليلة زواجى الأولى إنى أخاف الظلمة، فضحك عاليًا وهو يؤكد لى أنى سأنام فى الظلام بلا خوف فليس هناك عفريت يسكن الظلام، وحين قلت له إن العفريت بداخلى وليس فى الظلام نفسه، قهقه ضاحكًا ونعتنى بالطفلة البلهاء.

هربت إلى الحمام أستنجد بضوئه من غرفة الذبح التى أعدت لى، وصار لى ملجأً فى كل أيام الذبح التالية لليلة الذبح الأولى

التى أعدوا لها عرسًا واحتفالاً؛ وكل السنين التى تلتها دون أن يحسوا بخوفى الذى يزلزل داخلى، والهوة السوداء المجهولة التى ألقونى فيها دون أن يسألنى أحد عن مشاعرى التى كانت تتلخص فى كلمة واحدة: الخوف.

الوجع

آه يا عمر! تأتى وتمر وتنقضى؛ وما أقل ما تجلب معك رفيقًا موشَّى بالفرح.

آه يا عمر! تأتى وتمر وتنقضى، وما أكثر ما تجلب معك من أوجاع وآلام وفزع.

أستميحك عذرًا أيها الزمن الذى لم يُعلِّم الشفقة أن ترحمنى.. أستصرخك أن تترك لى مساحة فرح.. أرجوك أن تأتى وقبل أن تمضى اترك لى بعض السعادة!

أيها الضنين حتى بكلمات الفرح.. البخيل بالبهجة.. السخى بالحزن والوجع.. اترك لى قدرًا من السعادة يعيننى عليك وعلى رحلة حياة ملؤها عيون المتلصصين، وآذان المتصنتين، وشفاه الشامتين، وألسنة النمامين.

طاردتنى بخسائرى حتى لم أعد قادرة على معرفة معنى الفوز، وسطوت على أفراحى حتى لم أعد قادرة إلا على العيش مع الحزن.

أيها البارد المشحون بحرائق الحسد اللاهبة، وسحابات الحزن، وأمطار الفقد، وعذابات المرض، ووجع الفقر، ورعب العدَاء غير المبرر، وجحيم الحقد الموجع، وخوف الموت... كفّ أذاك عنى فقد آلمتنى بالكثير الذى زاد وما زال.

تحمل أيامك الأحداث متلاحقات حتى تكاد أنفاسى أن تتقطع من ملاحقتك وملاحقتها، وتضنُّ علىّ حتى يصبح خوفى من المجهول مجهولاً لمشاعرى، فأصرخ صامتة:

– ماذا تخبئ لى أيها القدر؟ ماذا تحمل فى أكفك المضمومة العصية على الفتح بأصابعى الضعيفة التى أوهنتَ؟

حنانيك أيها الصديق العدو الذى ملأ حياتى أحداثًا، تلاحقت فيها المواجع والخسائر، ونأتْ فيها لحظات الفرح إلا قليلاً، وشحنت وجدانى بالخوف من المجهول وأوجاعه حتى ملَّنى وجعى كما مللته.

أسترحمك أن ترفق بعذاباتى، وترحم وجعى، وأن تترفق قسوتك بى، فالعمر يمضى بين يديك كرمالٍ تتسرب بين أصابع مفتوحة دون لحظة فرح حقيقى، أو حب مبهج، أو سعادة تغمرنى، لأتمكن من النوم.

تجمعت سحب الدموع فى عينى دون أن أدرى أهى صدمة الواقع أم واقع الصدمة؟ ورحت أسائل نفسى:

هل جرحت ذاتى حين وضعت نفسى فى مواجهتى؟

كنت أيها الزمن صدمة زلزلت مشاعرى وأرهقتنى.. حرمتنى النوم، وكانت الكلمات التى هى جنة روحى مصدر وجع متجدد كعنقاء شيطانية، جعلتنى أتساءل:

هل يمكن للألفاظ أن تكون شظايا متفجرة تصيب الروح قبل الجسد... تقتل المشاعر؟

هل تستطيع الكلمات التى تصنع الفرح أن تغتال البهجة؟ مررت بذلك وأنا طفلة وعلى قدر محبتى لخالى وتدليله لى فإنه وفى ذلك اليوم لا أعرف ما حدث منه تجاهى كل ما أتذكره أننى بحكم موقعى من قلبه وتدليله لى أصررت ألا يتفرج أحد على التلفزيون لأن خالى أحضره لى، وأصررت ألا أتحرك من أمام الجهاز الذى كان يتفرج عليه ضيوف بالبيت وجاء خالى فأخبرته جدتى أننى أجلس أمام الجهاز وأمنع الرؤية عن الضيوف، حاول خالى حملى بعيدا عن الجهاز لكننى تشبثت أكثر وعاندت فما كان منه ألا أن نعتنى بعدم التربية وأمام ضيوفه وكل من بالبيت! صعقت بالكلمة وصعقت أكثر حين حاولت التراجع لأخفى نفسى فى مكان بعيد عن العيون وأبكى فى صمت. أثناء ذلك نزلت فى كرتونة الكتاكيت الموضوعة أسفل الكرسى الذى كنت أعتليه وأحسست بها تنفجر تحت قدمى فصرخت وغبت عن الوعى

حاول الخال بعد أن حملنى بعيدا عن المكان وعمل على إفاقتى حاول جاهدا أن أنظر إليه أو أرد عليه لكننى كنت أتألم من وقع الكلمة التى لم أكن أنتظر أن ينطق بها لى. ظل بجانبى أياما يحاول أن يمحو الأثر السيئ لواقعة الكتاكيت وأيضا للكلمة التى قالها التى أخبرنى أننى وضعته فى حرج أمام ضيوفه وأنه هو من يربينى فمن أين لى بعدم التربية! مرت تلك الواقعة التى لم يتجاوز عمرى أثناءها خمسة اعوام لكننى بين الحين والآخر أتذكرها وأتذكر كلمة موجعة من حبيب عمرى وأتعجب هل بعد كل هذه الأعوام لا أستطيع غفرانها!

ينتابنى إحساس غريب يجمد مشاعرى... يغرقنى فى الصمت، ويغمر فؤادى بشجن هادر، وعيونى بضباب دموع معلقة، فأجلس مكانى كتمثال شمع بارد.

آه أيها الوجع الساكن منى القلب والروح.

أنا بنت.. أحببت كونى أنثى ومن هذا الحب جاء وجعى الأول.. "أنت بنت" فكان لزامًا علىّ أن أتعلم كيف تجلس البنت.. أن أتعلم كيف تتكلم البنت.. كيف تسلم البنت على الرجال.. كيف تتقبل أحضان النساء.. كيف تتقى الشباب.. كيف تأكل وتشرب..

كيف تنام وتصحو.. متى تسعل وكيف تخفى فمها.. زرعوا روحى بكونى (عورة) وظل إحساسى هذا وجعًا لم يغادرنى.

جاء أول وجع من كونى أنثى من أبى يوم صفعنى على سلم البيت وأنا واقفة مع ابنة الجيران حتى رأيت نجوم عز الظهر التى يتكلمون عنها لأنها كانت تهمس فى أذنى ولأن (الهمس عيب.. والبنات يفسدهن بنات) وبقى وجع الصفعة معى وقوله أن البنات يفسدن البنات وجعًا مصاحبًا لوجع الصفعة.

توالت الأوجاع مع التهجير القسرى الذى فرضته الحروب، وفرضت علىّ أن أفارق خالى شقيق روحى وربما روحى التى تعيش خارج جسدى.

أصدر الحاكم العسكرى لبورسعيد أمره بتهجير سكان المدينة المقاتلة، فعرفت الشتات حين سافر خالى إلى الإسكندرية مع جهة عمله، وسافرت زوجته إلى دمياط مع أهلها.

كان قدر أسرتى أن ننتقل للمنصورة، فقد نجح عمى فى العثور لنا على شقة، استأجرها أبى حيث عمله الجديد، ورغم أننا كنا من المهجَّرين المحظوظين الذين لهم بيت خاص، ولم نسكن فى مدارس أو أبنية غير معدة للسكن؛ إلا أن ترك بورسعيد كان وجعًا من جراحة مؤلمة مفاجئة، تم فيها استئصال تاريخى بقسوة، وزرع

واقعى فى تربة جديدة لا أعرفها، واستنبات مستقبلى فى واقع من ملح.

أصبحت فجأة ربة الأسرة دون سابق إنذار يوم سقطت أمى صريعة مرض قاسٍ أرقدها الفراش بلا حول، فصرت مسئولة عن رعايتها، والاهتمام بأبى، وخدمة إخوتى الذكور الذين لم يعتد واحد منهم أن يسقى نفسه شربة ماء.

كنت أستعد لامتحان الثانوية العامة، واستيقظ وجع الأنثى بداخلى وأنا أقوم بواجبات الأم المريضة، وأكتشف حجم مسئوليتها التى تحملتها بلا تأفف ولا اعتراض، كما لو كان قدر المرأة أن تكون خادمة برضا كامل وبلا أجر.

كان إحساسى بتقدير أبى لدور أمى هو عزائى الوحيد الذى أعاننى على تحمل لا مبالاة وفوضى إخوتى، وساعدنى على تحمل وجع البنت غير الخبيرة التى أصبحت ربة أسرة دون إنذار.

افتقدت الراحة، وعرفت وجع المرأة المسئولة مع تقسيم وقتى حتى لا أقصر فى واجبى تجاه أسرتى، وكى لا يكون هذا التقصير سكينًا يذبح حريتى وحلمى بالدراسة.

أستيقظ مع أذان الفجر لرعاية الدواجن التى تربيها أمى، وأعد إفطار الأسرة، ثم أركض للمدرسة لحضور الدروس والذهاب للسوق أثناء عودتى للبيت لتأمين احتياجات الطعام وغير ذلك من

مستلزمات الحياة، وحين أعود أتأكد من استيقاظ أمى لأساعدها على دخول الحمام وقضاء حاجتها، وغسل وجهها أو الاستحمام، وتبديل ملابسها، ثم وضعها فى الفراش، والتأكد من تناولها الدواء، وإطعامها للالتفات بعد ذلك إلى خدمات تنظيف البيت وغسل الأوانى، وتجهيز الثياب لغسلها، والتأكد من خلو جيوبها من النقود أو الأدوات حتى ينتهى اليوم، فأذهب لغرفتى شبه مغيبة مجهدة، لأذاكر دروسى، وأستريح قليلاً استعدادًا لليوم الجديد. وجاءت الأوامر بعودة المهجرين بعد انتهاء الحرب وإعاده إعمار المدينة خصوصا وأن بيتنا كان قد تعرض للقصف وانهار جزء منه واحتار أبى كيف سيتركنى بمدينة وحدى أكمل دراستى الجامعية وهم يعودون إلى بورسعيد.. وأتت فرصة لأبى لمنعى من استكمال دراستى فاقترح أحد إخوتى على أبى تزويجى وخاصة أن أحد أصدقائه قد طلبنى منه مرارا. لاقت الفكرة قبولا عند أبى، فتمسك بها.

لا أعرف كيف انتقلت الفكرة لحيز الواقع! كل ما أعرفه أنى وجدت نفسى مطالبة بتقديم الحلويات والمرطبات لصديق من أصدقاء إخوتى، وقد حضر مع أمه لزيارتنا، وبعد هذه الزيارة المريبة بدأت المساومات...

"إما أن تقبلى الزواج أو تعودى معنا لبورسعيد ولا داعى للتعليم الذى يجعلك تعيشين وحدك وتسكنين فى سكن الطالبات بالمدينة الجامعية".

نما الوجع فى أحلامى وحشًا يطاردنى فى المنام، ويتجسد فى صحوتى كلما نظرت لأمى وأبى أو أحد إخوتى فأركض للحمام لأفرغ ما فى جوفى، وشعور يسكن روحى أنى أريد أن أفرغ جوفى نفسه لا ما فيه.

بدأ وجع عمرى الممتد فى ليلة زواجى الأولى، فقد أصابنى إحساس الفريسة، ونما بداخلى شعور مهين بفقد القيمة، وأنا أعيش لحظتى بشعور المنتهكة المغتصبة.

جاءنى مرعدًا مزبدًا يحمل كل آهات وجعى، فنظرت إليه، مستسلمة لعدوانه بهدوء مقبرة، وأنا أتخيل احتسائى آخر رشفة من آخر قهوة مرة شربتها قبل أيام، وهو يتوارى كسراب. كان لا بد أن يرحل.. وحين انتهى منى وقفت كسهم.. وفى لمح البصر كنت فى الحمام أغسل آثاره عن بدنى، وفى الصباح بخرت البيت لأزيل رائحته ولاستقبال يوم جديد.. فيه تنتهك روحى وتتردد داخلى عبارة وحيدة لا بد أن يرحل إلى أن جاء ميعادها بعد عدة سنوات من انتهاك الروح.

كان نجاحى فى إدارة مصالح أسرتى طوال شهرين هما فترة مرض أمى مقدمة لوجع عمرى كله، فقد أوحى أخى لأبى وإخوتى بفكرة تزويجى مبكرًا.

كنت قد بدأت دراستى الجامعية حين بدأت بشائر عودة المهجرين من أهل مدن القنال لبيوتهم، وبدأت مشكلة إقامتى بعيدًا عن الأسرة تلوح فى الأفق، فتفتَّق ذهن واحد من إخوتى عن فكرة تزويجى، وراقت الفكرة لأبى وفجأة وجدتنى زوجة وأنا ما زلت أحمل الطفلة بداخلى وأسير. وعادوا إلى بورسعيد تاركين إياى مع زوج –وجها لوجه– كل ما يربطنى به عقد زواج. وواجهت الوحش وحدى بلا أم أو صديقة تدلنى، ولم يكن هو أرحم من الجميع فظهر الوحش بداخله يدمر الباقى من إنسانيتى جسدا بلا روح، وعندما انتهى منى جريت إلى الحمام كى أطهر نفسى من بقاياه العالقة بجسدى وأطلق البخور فى كل زوايا البيت كى أوارى بقايا عطره، وأتحرر من رائحته. وتوالت خرائب نفسى مع إنسان يعتدى على روحى قبل جسدى ويتركنى فارغة من أى معنى بلا روح مجرد جسد يتحرك.

هكذا وجدت نفسى خارجة من رحم أمى كى يخرج من رحمى أبناء قبل أن أتعلم الحبو، وحين تعلمت أن أنهض على قدمى،

وأتعلم الخطو وجدتنى مسئولة عن بيت وزوج وأبناء وعمل... حياة كاملة فوجئت بها تسقط فوق رأسى.

أوجعنى أشد الوجع فقد الطفلة التى أحب.. تلك الطفلة الساكنة بداخلى التى تصنع فرحى، وتشاركنى حزنى، التى اختبأت مرعوبة من حياتى الجديدة فى كهفٍ خفىٍّ حفرته بداخلى وكلتانا تفتقد الإحساس بالأمن والدفء.. تعانى برد الزمان والمشاعر، وترتدى كلتانا قناعًا زائفًا من المشاعر المصطنعة. حينما انفصلت كان الجميع يتوقع أن أدخل فى علاقة جديدة تكون باختيار ووعى لكن الروح حينما تتطفئ يخبو وهج المشاعر وتضيع الرؤية ويصبح التخبط سمة الحياة بلا وعى... فبعد سنوات من الوحدة دخلت تجربة جديدة كان فقد الأحبة توهانا فقررت أن أعوض التوهة بعلاقة حب أمارس فيها حياتى الطبيعية كزوجة وحبيبة وصديقة، وأدرك هو احتياج الطفلة بداخلى للأمان فزرع الحياة أمانا. ورغم معارضة الجميع ارتباطى به كان إحساس الوجع يسيطر على نفسى خصوصا أننى أحيا نصف حياة وأنا أريد أن أكتمل. ضربت بكل الآراء عرض الحائط وظللت أبحث عنده عن صفات متشابهة بينه وبين خالى، لم تكن به أى صفة لكن أنا كنت أطمح أن أصنع منه إنسانا يليق بمشاعرى.. وتزوجنا ومضت الحياة فى أيام زواجنا الأولى أحسست بالسعادة تغمر حياتى والأمان يغلف

نفسى، لكن مجهولا كان يطرق داخلى بشدة ولا أعلم سببه حتى بدأ يظهر المجهول صفة أمقتها وأمقت أن يمارسها معى أى مخلوق فى الحياة وهى خداعى! فقد أقنعنى أنه مطلق زوجته وأنه بحاجة لى ولحنانى وأننا سنكون شريكين فى الزواج والعمل. دخل حياتى واطلع على كل خباياها ولم يكن عندى ما أخفيه أو أخجل منه وعتّم على حياته.. كنت أرصد بعض الصفات الانتهازية سواء الانتهازية فى الاستحواذ على علاقات عمل وصداقات كونتها على مدار عمر شاركنى فيه أصدقائى، ثم بدأت الغيرة واضحة من تحققى فى عملى وبدأ يزرع الصعاب وبدت أنانيته تتضح وتظهر بوضوح يوم كُرِّمت عن عملى وحصلت على تكريم وشهادة تقدير بتفوقى وتميزى. أعطيته الشهادة كى يلقى عليها نظرة، فأمسكها وأطاح بها للمقعد الخلفى للسيارة دون النظر إليها، عندها أدركت أننى بالنسبة له مجرد جسر من علاقات العمل يعبر عليه وأنه لا يهتم بتقدمى وأننى لا أعنيه فى شىء، ثم كانت المفاجأة الأكبر أنه متزوج بأكثر من زوجة وكان ترتيبى الثالثة... وهنا.. هنا فقط قررت أن أتحرر منه مطالبة إياه أن يخرج بعيدا عن حياتى وللأبد. وكان يعلم جيدا قرارى وأنه لا رجعة فيه فانسحب من حياتى غير آسفة عليه وأخبرت الجميع بانفصالى

مواجهةً نفسى بصدق أنه سوء اختيار عازمة على عدم تكرار التجربة الموجعة، تجربة الاختيار الخاطئ.

أعترف أننى كامرأة كنت أحتاج إلى رجل تكتمل حياتى معه لكن القدر يعاند بعد أن مرت الأيام من بين يدى بلا أمان وأصبح الشك هو ما يسيطر على حكمى على الأشخاص ورغم الأوجاع التى مرت بى فى الحياة، كانت تمر فلم يكن الأمر باختيارى، أما تلك المرة فالموجع فى الأمر أننى أنا التى لم تنتبه، ذابت مشاعرى مع عبارات الحب المزيفة. كان الجميع يرى مشاعره عارية أما أنا فقد كنت أتلهف لتلك الحياة والمشاعر التى عشتها ما أوجعنى أننى وهبته مشاعرى التى اختزنتها عبر سنين عمرى، لم أكن أبخل عليه بذرة من كيانى، وكان هو البخل مجسدا فى مشاعره ومصروفاته. أتذكر أن كثيرا من مشاكلنا كان يتلخص فى الفصال فى المشاعر وأنا غير منتبهة. أصررت يوما أن نذهب للجلوس على شط النيل كان يقاوم مقاومة شديدة وأمام إصرارى وافق على مضض، وكنت من يوم زواجنا لا أخرج حاملة أى نقود معى فليس لى مطالب وهو دائما معى، أحضر الجرسون الطلبات ومعها فاتورة الحساب فنظر لها وتغيرت ملامحه وعند انتهائه من تناول ما طلبه قام بحجة الذهاب إلى الحمام وطال انتظارى له وتعدى الزمن ساعة وأكثر فناديت الجرسون كى يبحث عنه

فأخبرنى أن الرجل أخذ عربته وغادر! لم أصدق فاتصلت به كان هاتفه مغلقا. دارت بى الدنيا ماذا سأفعل؟! هل أتصل بابنى أدعوه لإحضار نقود؟ وإذا جاء فماذا سيكون شكلى أمامه؟ وبالمصادفة كان أخى ضيفا عندنا فاتصلت كى أسأله إن كان عاد إلى البيت.. وكانت المفاجأة أنه عاد ودخل لكى ينام ولم يخبرهم أنه تركنى وحدى ظنا منه أن معى نقودا سوف أحاسب وأركب تاكسى عائدة للبيت، هذا ما قاله عند سؤالى له. دارت بى الدنيا ماذا أفعل أأخبر أخى وهو كان من المعارضين لارتباطى به أأتصل بأحد أصدقائى كى يحضر لى نقودا؟ ولحسن حظى كان الجرسون لماحا ورحيما إذ قال لى لا تقلقى سأحاسب أنا وبعدين هاتيهم لى. لكنى لم أغادر قبل أن أترك له دبلة زواجى –بعد إلحاح منى– رهنا ودليلا على عودتى لإعطائه نقوده والأكثر عجبا أن الجرسون كان رافضا أن يأخذ رهنا للحساب والأكثر استغرابا أن الرجل استوقف لى تاكسى وحاسبه مقدما نظير توصيلى. كنت بالتاكسى أحمل وجع عمرى فى اللحظة عازمة على عدم عودة دبلة زواجى لإصبعى مرة أخرى. ووقفت أمام حقيقة واضحة هو شحيح ليس فى مشاعره بل وفى إنفاقه، وبدأ يظهر شحه فى المشاعر عندما اعترف بزواجه من أخريات وأننى لى ثُلث زوج! ضحكت من شدة الصدمة ثُلث زوج عبارة محسوبة

لشخص يحسبها بمنطق المكسب والخسارة، ضحكت لأنه هو فى واقع حياتى لم يكن حتى ثلث رجل. لعنت داخلى الحب والاحتياج، احتياجى كامرأة لرجل يحتوينى ويحتوى أوجاعى، ووقفت موقف وجود الآن والآن فقط دنت ساعة خروجك من حياتى وللأبد وأنا علىّ أن أواجه نفسى وواقعى الذى سيسخر من اختيارى وقررت أن أسخر أنا منه ليترك وجعه داخل الروح.

الموت

ينسحب داخلى لينزوى داخل ذاتى، لأهرب من مشاعرى فأتقوقع حيث يتصحر وجودى، ويُصلب القلب، ويتحشرج الصوت بينما تتجمد الدموع فى العيون.

ما الذى قادنى لتلك الحالة ثم هجرنى؟

أشتهى الحياة.. ألمسها وأحسها تحت جلدى، تسرى فى شراييني.. لكن الموت يجرحنى.. لا أريده وأريده أن يدرى.. حتى لو كان الموت عشيقًا رائعًا يضمنى بين ذراعيه، ويحتضننى ليفيض على من غبطته.. فلا أريده.

أعرف أنى مساقة إليه، وأنه قادم إلىّ، يطل بوجهه من مرآتى كل صباح ومساء، فيتمزق داخلى مكسوًا بالحزن وأنا أنادى أطفالى فى رحمى صارخة: "لا تخرجوا للوهم والخوف والأمل الزائف... لا تولدوا كى لا تموتوا".

سلخ الموت جلدى وتركنى وحيدة كما اعتاد أن يفعل، لأجلس على رمال الشاطئ أرنو للبعيد، متدثرة بحزنى أنتظر الآتى الذى لا يأتى، وقد سئمت الموت القادم بلا ملل... دائم التكرار.

يقتلعنى إعصار مجهول من بين زحام.. يتخيرنى دون بقية السائرين، محركًا سكونًا مريبًا سكن داخلى، فيدفع قلبى للجنون، وتصرخ دقاته حتى أسد أذنى بيدى كى لا أسمع دقات هذا القلب الموجوع بالفقد والفزع ووجع الموت.

أتمزق من داخلى والحزن يسلمنى للحزن، ويسلمنى الموت لموت جديد، يسلبنى الأحبة دومًا، فيعرينى ويتركنى نهب الصواعق والرياح فى صحراء قاسية ملتهبة بألمه الممضّ.

أسألك أيها الموت سؤالاً لم أملّ من تكراره، ولم تمل من الصمت عنه:

لماذا أنا أيها الموت؟

لمَ اخترتنى لتعذبى بالفقد والضياع؟

لماذا تخيرتهم دون بقية البشر؟

لمَ أنت قاسٍ فى ذبح مشاعرى، وسرقة أحبَّتى؟

لماذا تأخذهم بعد لقائى بهم؟

لمَ لمْ تأخذهم وهم بعيد وأنا عنهم ضائعة؟

تفاجئنى مندفعًا من المجهول وقتما آمن للحياة وأستقر.. أربكت حياتى وهزمتنى فى كل مرة خرجت فيها إلىّ من بين أحراش الحياة بوجهك الموت، فأجدنى وسط صحراء قاحلة أواجه أشباح سراب مجهول يحيط بى، ويحبس أنفاسى، ويسمل عينىّ، ويسد

أذنىّ، وتتركنى هازئًا مُشتِّتًا فرحى، مُمزقًا ابتسامتى وتنثرها فى الفراغ، فأصرخ بلا صوت، وأبكى بلا دموع.

أمضى فى حياة لا أعرفها، مُحتبسة فى صدرى كلمات زمن آخر لا أحياه، وليس لى إلا أحزان جديدة قديمة وأنا ألملم نفسى كى لا يسقط رماد وجودى على إسفلت الطرقات.

أذكر طفولتى البكر، وحلم السيطرة على الحياة وأنا أعانق وجودى وعشقى، متشبثة بحلم الحب يحمينى من شرور الكون.

جئت كزمن معاد للبراءة والخير.. جئت شرًا يقتلع جذور أحبتى من بساتين أملى.. جئت تذيب جبال الصبر المر فى أوردتى، وعبر واقعى، وتنثره فى مستقبلى، وتجعله تاريخى.

شردتَ بداخلى الأمن، واستبدلت به الخوف والوحدة، وسرقت الأمانى والآمال، فأصبحت رفيقًا أستحضره.. شبحًا جسدًا أهرب منك إليك، وأطرح عليك علامات الاستفهام والتعجب التى ملأت أسئلتها كيانى، فأصبح لقائى بك معتادًا مكرورًا مبهمًا.

فاجأنى الموت أول ما فاجأنى يوم جاء أحد إخوتى باكيًا يحمل كلبى الأثير الذى اغتاله جارنا –الذى كان يطاردنى غزلاً– بالسم، واستثاره أن تقوم جارتنا التى كانت بمثابة أمى الروحية بتوبيخه على سماجته معى. كان أخى قد أحضر لى كلبا صغيرا فى إحدى إجازاته فقد كان مجندا وكان يعلم شغفى بالحيوانات ولأننى

لا أجرؤ أن أصرح لأبى باقتناء أحدها فأتى لى بهذا الجرو الصغير الذى تعلقت به من اللحظة الأولى وأصبح صديقى فى هذا العالم الذى أغترب عنه، صار لعبتى المحببة ولازمنى حتى فى نومى وكان أسعد لحظات حياته وحياتى عندما أجلس للاستذكار فيجلس باهتمام بجانبى لا يتحرك إلا عندما أفرغ من دروسى فيتحرك آمنا أننى أديت ما على من فروض ليدعونى للعب معه قبل أن أخلد أنا وهو للنوم.. وعندما كنت أذهب للمدرسة التى كانت على بعد أمتار من منزلنا كان يجلس بجوار باب البيت فى انتظار عودتى، وعندما يسمع جرس المدرسة يعلن انتهاء اليوم الدراسى يظل ينبح حتى تفتح له أمى الباب فيعدو حتى يصل إلى وسط جموع الطالبات ويحتضننى كمن يحضن ضالته. تعلقت به وأصبح هذا الكائن هو من يصنع التوازن لحياتى وكان أخى يستشعر ما أحس به فأتى إلى به كى أتوازن. كنت أذهب لمدرستى وآخر من أودعه هو وأخرج من المدرسة مسرعة وكأنى على موعد مع من يكملنى... لكن الجار اللعين أدرك كيف يؤذينى بعد أن جرحت جارتنا كبرياءه وهى توبخه على معاكسته لى فأطعم السم لكلبى الذى مات أمامى وسقطتُ أنا فى هوة سحيقة من المرض ورفض الحياة لمدة أشهر حار فيها الأطباء فلم يكن عندى شىء عضوى لكنها نفسى التى حالت

بينى وبين نفسى. وهنا أيضا لعب القدر لعبته فقد كنت فى نهاية المرحلة الثانوية وكنت أستعد للامتحان الذى كان بعد شهرين وبضعة أيام عند واقعة موت الكلب، وحين تدهورت حالتى وأمام وهنى البادى وفى لحظة لا تُنسى تحدث أبى أمام الجميع أننى إذا تماسكت واستطعت دخول الامتحان فهو واثق من نجاحى وأنه سيدخلنى الجامعة. كان وقع كلماته على كل الموجودين كالصاعقة فهو كان ضد دخولى الجامعة وكان مكتفيا بالمرحلة الثانوية بعدها أظل بالبيت فى انتظار تزويجى، لكنه نطق بكلمة الجامعة أمام الجميع ومن عادات أبى أنه لا يرجع فى كلمة أو وعدٍ وعَد به، ووثق الجالسون كلماته بإعادتها عليه فكان يؤكد أنه سوف يدخلنى الجامعة. قام خالى إلىّ حيث أرقد وقال لى أتت اللحظة الحاسمة عليك أن تقوى حتى تحققى أملك وأملنا، ستكملين دراستك، قلت له فاتنى الكثير، فردّ بثقة ستجتازين امتحانك وامتحاننا لقد ذاكرتِ طوال الصيف الماضى وأظن مراجعات بسيطة سوف تستعيدين كل معلوماتك. وأمام إلحاح خالى الذى وعدنى بالبقاء معى حتى نهاية امتحاناتى ودعم جدتى وتوسلات أمى استطعت أن أذهب إلى الامتحان مستندة على ذراع الحبيب الذى دعمنى بحبه وثقته بى وببنوتى له واجتزت الامتحان ولم

أخيب ظنونه، فقد تفوقت بمراحل عن زميلاتى ودخلت الجامعة. تحققت أمنية خالى وأمنيتى.

عاد الموت مكشرًا عن أنيابه فى وجهى يوم اختطف جدتى وأنا مصدومة كطفلة عاجزة عن فهم ما يحدث؛ غير قادرة على استيعاب أن ينتقل إنسان أحبه من وجودى إلى وجود لا أعرفه، مندهشة من تلك القوة التى تأخذ أحبتى من عالمى إليها دون استئذان أو إنذار.

كنت أحتفل مع أسرتى بزواج أخى الأكبر الذى أعد للفرح عدته، وأصر على المبالغة فى الاحتفال حتى يبدو ندًّا لأكابر بورسعيد، ولاحظت غياب خالى فارتبكت، وحين سألت زوجه أجابتنى بأنه اصطحب جدتى للمستشفى حتى لا يربك الاحتفال، وأنه سيعود قبل أن ينتهى الحفل.

انقبض قلبى، وانتابنى شعور غامض بالاكتئاب والخوف وسرت حيث أخى وعروسه لأبارك لهما دون أن أعرف اتجاهى، أو أدرك ماذا أقول، متعثرة الكلمات على شفتىّ، ومشوشة أفكارى، تهيم روحى فى البعيد.

لم أستطع الصبر وعيناى تجولان بين المدعوين حتى وقعت على أحد أصدقاء إخوتى من جيراننا، فتوجهت إليه وناشدته أن يذهب للمستشفى ليطمئننى على خالى وجدتى، وظلت عينى

تتابعه مغادرًا، وبقيت أدور فى المكان كحيوان حبيس جريح ينتظر من يفك أسره.

مضت اللحظات دهورًا وقلبى يحترق قلقًا، وروحى يمزقها الفزع، وشعور كئيب بسحابة سوداء هائلة تحوم فوقى كطائر خرافى نذير شر لا يريد أن يفارقنى.

ما إن لمحت رسولى للمستشفى عائدًا حتى هرولت إليه أسأله، فنكس رأسه دون أن يقول شيئًا، فأمسكت به من كتفيه وأخذت فى هزه بكل ما أملك من قوة، فنظر إلىّ نظرة واحدة، وقال كلمتين فقط: "ماتت جدتك". وأدار ظهره وفر من أمامى.

تجمدت مكانى لوهلة، ثم خلعت حذائى عالى الكعب، وركضت للخارج، وظللت أركض وأركض على غير هدى حتى قادتنى قدماى لبيتنا، ففتحت الباب، ودخلت غرفتى وارتميت على سريرى أريد البكاء، وأعجز عنه، وقلبى يدق بقوة وسرعة كما لو كان يريد مغادرة صدرى.

عدت من تجوالى فى الشوارع بلا هدف، يموج الصداع برأسى الساكن على جسد منهك.. مسجونة فى ذاتى بلا إرادة حيث الشوارع خالية إلا من المتسكعين والشحاذين المكوَّمين فى الأركان كفضلات بشر، وجسد الهواء ثقيل لا أقوى على تحمله ولا يتحملنى.

رأيت شوارع تشبهنى ولا تشبهنى، ليست سعيدة ولا تعيسة، تهطل فوقها قطرات مطر شحيح، فلا أعرف أهى مبتلة بالمطر؛ أم بدموع سفحتها روحى.

أكان ضروريًا أن تموت يا خالى؟

عشتَ رجلاً وغريبًا.. لم ترِ قصتك لأحد، ولن يروى قصتك أحد.. لم تعتقد يومًا أنك حكاية تستحق السرد، ولم تظن يومًا أن ما تعرفه عن الحياة والأشياء جدير بالحكى.

كنتَ رجلاً وغريبًا.. رأى نفسه وسط الحكاية ولم يسأل متى وكيف بدأت هذه الحكاية.. فقط تطلعت لختامها. عندما غادرتُ بورسعيد بعد عام من العمل بها أدركتُ أنها لم تعد مدينتى ولا مدينته التى أخذت من روحينا الكثير فلقد تبدلت المدينة وأصبح العهر عنوانها مع انفتاحها على كل ما تلفظه بلدان العالم يفترش أرصفتها وفاتريناتها واغترب الخال عنها وعن المحيطين به واختار الانزواء بإرادته الكاملة. كنت أستشعر المجهول الذى يتربص وكان الشرير يزحف إليه ليخطفه بعيدا عن عالمنا ويرمى بى لواحة اليتم...

وبقيت رجلاً وغريبًا.. يمشى ويسأل ويجيب فى تواضع حكيم يقول: "ما أملك إلا كلماتى، وماذا يفعل رجل بسيط بكلمات أبسط منه"؟

مشيت رجلاً غريبًا.. فوق أديم الأرض تمشى كلماتك إلى جانبك، وتتساقط حولك كأوراق شجر الخريف. ركضت إلى موتك حين دنا منك وصار قاب قوسين أو أدنى، ومددت له يدك قبولاً دون أن تدَّعى شجاعة فى مواجهته، فقد عرفتُك أنا، وعرفتك الدنيا محبًّا للحياة عاشقًا لها.

كنت رجلاً وغريبًا... غادر فغابت المدينة، وغرقت الشمس ولم تعد تشرق أو تغيب، وفقد البحر هويته، ولم تعد رمال شاطئه صديقة لأقدامى، وعجزت أصداف البحر أن تبوح لى بصوته وأسراره، وبعد أن كنت وجودًا أعيش فيه، ويعيش فىّ، صرتَ نجمًا بعيدًا كدائرة مسافرة تصغر وتصغر حتى تصبح نقطة بيضاء تتلاشى فى الظلام... فأتوه.

غبت عن نفسى وعن الوجود الذى تركنى هو الآخر حين غبت... لم غبت؟ وأين ذهبت؟

مضيت دون أن تقول أو تخبرنى بسفرك للبعيد البعيد، وتركت جسدى يسعى للتراب، يريد أن يضم رفاتك، وأحب النعاس فقد يأخذ روحى إليك حين تأخذنى أحلامى على مداها الأبيض الذى لا ينتهى إليك.

يا سيدى وصديقى.. يا أخى وحبيبى..

يا رفيق عمرى وأبى الحقيقى..

يا خالى الوحيد.. أخبرنى: لم تركتنى؟ ولمَ لمْ تعلمنى أن أتحمل قسوة فراقك؟ لن أعترف بموتك فالموتى لا يتركون وراءهم إلا الحزن والذكرى أما أنا وطالما أحيا فستظل باقيا حيا بروحك التى لا تغادرنى لن أعترف بموتك فأنت أسطورة تخطت حدود الوعى وعاشت فى اللاوعى وكانت هى عزائى الوحيد لغيابك، كنا نتلاقى لنستعيد ذكرياتنا المشتركة معك وكانت الزوجة الوفية لزوج حرم من نعمة الإنجاب وعاملتنا بكل الأمومة والحب كانت نسمة بليالى حياة الخال لم أشاهده مرة يسىء معاملتها، المرة الوحيدة يوم ذبح الديك الروسى والتى كفرت عنها كثيرا حاولت مرارا بعد رحيله أن أصعد معها للبيت الذى ضمنا بذكرياتى كلها لكن محاولاتها باءت بالفشل كنا نلتقى بالشارع فى المرات التى كنت أزور فيها مدينتى أو نتلاقى فى منزلنا ولم يطل العزاء كثيرا فهى لم تتحمل الحياة بعده ورحلت تاركة إياى مع ذكرياتى وحدى لتكتمل معى منظومة الحزن وأستشعر حقيقة اليتم...

يوم وجد أبى ابنته، ويوم وجدت أخيرًا أبى.. أنا الابنة التى أضعته على مدى العمر.. تركنى ورحل.. اختطفه الموت.

سرنا معًا على طريق معاناة المرض.. بعدما يئس من عون إخوتى الذكور له لجأ إلىّ.. شخصه عدة أطباء بمرض فى القلب، وشخصه آخرون بذبحة صدرية؛ حتى قرر طبيب من أصدقائه

إجراء فحص بالأشعة لصدره، ويوم ذهبت لمعرفة النتيجة، صدمنى التشخيص الذى ذكره الطبيب:

"أبوك مصاب بسرطان الرئة، وحالته متقدمة، ولن تُفلح معه الجراحة وربما تعجل بأجله".

أخذت صورة الأشعة، وفتحت المظروف الكبير وأخرجت التقرير ومزقته قطعًا صغيرة للغاية ورميتها للأعلى. كنت أعرف أنه إذا اطلع على التقرير وقرأه وهو يجيد الإنجليزية فسوف يعرف حقيقة مرضه فآثرت تمزيقه ولا بأس من الكذب إذا كان هذا الكذب يحمل الأمل لمريض.. كان يومًا عاصفًا شاتيًا عصف بالأوراق المفتتة وطار بها لعلٍ، وذهبت لأقرب محل يبيع السجائر، واشتريت له كمية كبيرة من النوع الذى يحب، ودخلت عليه باشَّةً أمازحه أن لا شىء به، وأن الطبيب طمأننى عليه، وهديتى له بمناسبة شفائه هى كل هذه السجائر التى يهوى. وكان الطبيب قد منعه من التدخين وهو المدخن الشره، وكيف يكون مريضا ويسمح له الطبيب بالتدخين؟!

عشت معه ما بقى من عمر أعانى خوفى عليه، وأكتم سر مرضه الذى لم أبح به لأحد حتى أمى، أو إخوتى.

اشتد عليه المرض وأرقده الفراش، وأصبح ملحًّا فى تواجدى معه وحين أدخل عليه تنفرج أساريره، ويمد لى يده لأحتضنها

وأقبلها، فيميلنى نحوه ليقبل يدى وجبهتى، وعرفت لأول مرة فى حياتى حضن الأب وحنانه يوم جذبنى نحوه واحتضننى وهو يبكى بلا مبرر.

نسيت يوم فارقنى قسوته على طفولتى، وحصاره أنوثتى.. وحبسه وجودى، وتقديمه إخوتى علىّ.. تزويجى دون إرادتى، وكبت انطلاقى، ونصر زوجى.

تذكرت حنوه علىّ، وتفضيلى على إخوتى لرعايته، وفتح قلبه لى وسرد ذكرياته، وصداقته الأثيرة، وإعادة بناء جسور الأبوة والبنوة التى هدمتها سنين عمرى.

عدت من السفر لتستقبلنى أمى على باب شقتنا وأعينها منتفخة محمرة، ويدها الممدودة لاستقبالى والسلام علىّ ترتعش بلا توقف، وحين أخذتنى فى أحضانها شعرت بخفقان قلبها المتسارع نبضه، وكان جسدها ينتفض بين ذراعى كعصفور بلله المطر.

قالت لى إن أبى ينتظرنى، ولا يكف عن السؤال عنى من الصباح، وقادتنى لغرفته مبشرة إياه بوصولى، فنظرت إليه مبتسمة وهو يشير لى أن أقترب، وحين اقتربت منه قبَّل يدى، وجذب رأسى ناحيته مقبلاً جبينى وهو ممسك بيدى، وهمس فى أذنى: "ربى يسترك يا بنتى دنيا وآخرة".

أغمض عينيه وهو قابض على كفى، فظننته نام، وشعرت بيد أمى تحل يدى من يده، وتبتعد بى عنه باكية، تساعدها جارتنا فى دفعى وأنا رافضة استيعاب الموقف فى ذات الوقت الذى انفجر كل الحاضرين فيه فى البكاء، وأنا أصرخ: "فيه إيه؟ فيه إيه؟" وحين صرخ أخى فى وجهى: "بابا مات". لم يكن أمامى إلا أن أصمد كما وعدته وأن أكمل مراسم دفنه، وأن أكون سندا لأمى فى حزنها على فراق شريكها فى رحلة عمرها الذى كان فراقه صدمة كبرى لها لأنها لا تعرف شيئا عن الحياة خارج حدوده.

لا تسألينى عن ميراث الزمن منذ طفولتى فرغم كل ما عانيته بسبب خوفك على، وما زرعته فىّ من خوف، وما طبعته على روحى من ذنوب كونى امرأة... فأنا أحبك.

أفتقدك اليوم وأنا عارية الروح أمام ذكراك كما كنت أقف بين يديك طفلة عارية الجسد أغتسل من أدران يومى.. أفتقدك اليوم وأنا واقفة فى عراء الحياة بلا حائط أستند إليه أو يسندنى.. أفتقدك اليوم بعدما أسقطت الأيام والموت قناع الصرامة الزائف الذى خدعتنى به عمرًا طويلاً.

زرتنى اليوم فى أحلامى حين احتجت إليك، واستدعيت روحك فجئتنى ملبية تحملين لى سلام الروح وهدأة النفس، حاملة لى فى هدأة الليل وسكونه ما أحتاجه من طمأنينة وسلام.

صرت ابنتك وأصبحت أمى منذ مرض أبى.. يوم رأيته يبنى جسور الود والمحبة بينه وبينى. أصبحنا أختين بعدما مات، وأحسست بدفء وصدق مشاعرى تجاهك.

أمسينا صديقتين حين صارت رعايتك مسئوليتى، وعرفت أنك وثقت فىّ وقتما دافعت عنى عند إخوتى الذين حاصرونى بعد موت أبى محاولين فرض سيطرتهم على الأنثى فى مجتمع ذكورى أخذوا منه الشكل فقط، فقد واجهتيهم بأن الرجولة تحمل مسئولية وأنتم تريدون التسيد بالقول فقط وأننى أنا من أتحمل مسئوليتك وأبنائى، تصديتِ بكل حزم ودافعتِ عن حريتى فى العمل والحركة.

قبَّلتُ قدمك معتذرة بصدق حين غضبتِ علىّ يوم تعبت ولم أكن قادرة على المجىء إليك.

كان يومًا واحدًا غبتُ فيه عنك لكنى عرفت من ردة فعلك أنه ليس الوقت ولكنه الافتقاد، فكيف طاوعك قلبك أن تؤلمينى بشعور فقدك؟ كيف طاوعك قلبك أن تغادرى للبعيد وأنا بعيدة عنك؟

حين أخبرونى فى العمل أن رسالة هاتفية تخبرنى أنك متعبة تطلبين حضورى، طرتُ إليكِ، ووجدت باب الشقة مفتوحًا، وجارتينا تقفان فى المدخل، تستقبلانى محيطتين بى حتى غرفتك.

كنت نائمة مسجاة ومغطاة بملاءتك البيضاء التى اعتدت عليها، ونصف وجهك مغطى بطرحة صلاتك كأنك ملثمة لا يبدو

منك إلا عينيك، وحين أشحت بها وجدت بسمتك الشفافة الرقيقة تضىء وجهك المنير.

سألتك عن صحتك ولماذا تنامين حتى الساعة فلم تجيبى، وأمسكت بى جاراتك يجذبننى بعيدًا عنك وقد سجن حلقى صوتى، وعجزت عن الصراخ، وجفت بئر الدموع فى عينى وفشلت فى استدعاء البكاء.

وتكرر صراخ أخى فى وجهى: "أمنا ماتت".

تحملت قدَرى بقدْر القوة المزعومة داخلى فأنا الآن أواجه الأشباح وحدى.. صرت وحيدة غريبة لزاما علىّ أن أكمل مسيرتى وأتلقى طعنات الغدر من الزمن وأسير بوجه مبتسم ونفس ممزقة فكل الأحبة يرحلون ودائما يرحلون... والآن أنت أيتها المرأة فى العراء تعريت فى وجه الليل والموت والطرقات هل تصمدين أم تتركين حياتك تذروها الريح كقشة تتطاير فى الهواء بدون أن يكون لها هدف أو وجهة؟!

أيها الموت: أبشرك... لم أعد أخافك، فقد فقدت هيبتك يوم سرقت من حياتى الأحبة...

أيها الموت: أبشرك... لم أعد أهابك بل صرت أستحضرك لأتحاور معك بعدما سكنت شراييني.

أيها الموت: أبشرك...

تحولتُ شبحًا مثلك، وروحًا ضائعًا بسببك، وألمًا يسير على قدمين بفضلك، ففقدت قدرك عندى.

أيها الموت: أبشرك... صرت أنا الأخرى موتًا مثلك، فكما كنت قدرى أصبحت أنا قدرك فتلاقينا فى قدر الافتراق واللقاء، وكلما فقدت الأمان أستحضرك كجنى يسكن روحى... لقد صرت صديقى.